المدخل
إلى دراسات الحديث النبوي الشريف

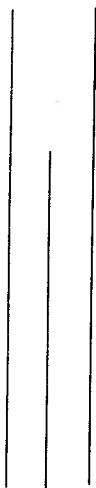
للعلاّمة الإمام السيّد أبي الحسن علي الحسني النّدوي

١٣٣٣ - ١٤٢٠هـ

دار ابن كثير

دمشق - بيروت

بسم اللہ الرحمن الرحیم



المدخل

إلى دراسات الحديث النبوي الشريف

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م



للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق . حلبوني . جادة ابن سينا . بناء الجابي
ص . ب : ٣١١ ـ هاتف: ٢٢٢٥٨٧٧ ـ ٢٢٢٨٤٥٠ ـ فاكس: ٢٢٤٣٥٠٢
بيروت . برج أبي حيدر . خلف دبوس الأصلي . بناء الحديقة
ص . ب : ٦٣١٨ / ١١٣ ـ تلفاكس ٨١٧٨٥٧ ـ ٠١ ـ ٠٣٢٠٤٤٥٩

تقديم الكتاب

بقلم : فضيلة الدكتور الشيخ عبد الله عباس الندوي
(عضو هيئة التدريس بجامعة أم القرى سابقاً
والمشرف التعليمي لدار العلوم ندوة العلماء حالياً)

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وبعد فهذه سطور ليست مقدِّمة على كتاب « المدخل إلى دراسات الحديث النبوي الشريف » فالكتاب أجل من أن يقدَّم ، إنما هي انطباعات عاجلة لكاتب هذه السطور .

سقى الله أياماً قضيتها في ربوع ندوة العلماء سنة ١٩٤٠ ـ ١٩٤٤م طالباً في المرحلة الثانوية العليا وقد أدركتنا الرحمة الإلهية أن نفتح ـ نحن الطلبة ـ عيوننا على القرآن الكريم في دروس كان يلقيها سماحة شيخنا المربي الجليل السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي ، مدَّ الله في بقائه نعمة ورحمة على الإسلام والمسلمين ، وإن أنس لا أنسى تلك الأجواء الروحية التي كانت تحيط بنا ونحن نصغي إلى دروسه ، تملك مشاعرنا عذوبة نطقه ، وصدق شعوره ، وصفاء ذهنه ، وقوة إدراكه وحماسه المميز في بيان ما يمس عقيدة التوحيد ، لم نعرف فيه ما تسمى المرونة في العقيدة ، وكان شديد الغيرة على الحق ، ولما تقدَّم بنا العمر ، وتوسعت دوننا الآفاق ، واطلعنا على ما كتبه السلف الصالح

أمثال الأئمة ابن تيمية ، وابن القيم ، وابن الجوزي ، وابن رجب الحنبلي ، لم تزدنا كتبهم إلَّا تصديقاً وتثبيتاً لما غرسه شيخنا الجليل ـ الذي كان شاباً أيام تدريسه لنا القرآن الكريم لم يبلغ الثلاثين من عمره ـ في نفوسنا ، غرس الحب لله ، ولدينه ، ولرسوله ﷺ ، اللهم اجزه عنا كل خير .

ومن نعم الله على كاتب هذه السطور أن أوائل ما قرأه من الحديث النبوي هي جوامع الكلم ، وحديث سيدنا كعب بن مالك ، وحديث أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها عن الإفك ، هذا هو الكتاب الذي أصبح فيما بعد نواة للأدب الإسلامي ، قد نوه بجماله ، وحسن الاختيار ، كبار أساتذة العرب ، وأساتذة العرب أوسع الناس صدوراً في اعتراف ما يستحق الاعتراف ومعرفة الجميل والإشادة بالفضل لصاحبه ، فقد قرأت للأديب الموهوب الأستاذ عبد العزيز الرفاعي (من كبار موظفي وزارة الخارجية السعودية وصاحب المكتبة الصغيرة في الرياض) كتابه « كعب بن مالك » فقد صرَّح بأنه لم يكن مطلعاً على مواضع الجمال الأدبي في الحديث النبوي الشريف إلا بعد ما نبهني عليه فضيلة السيد الندوي في كتابه « المختارات » ويمضي قائلاً :

« من الطبيعي أن اختياره قِطَعاً من الصحاح يدلُّ دلالة واضحةً على سعة اطلاعه على متون الحديث النبوي الشريف » .

لا شك أنه بالنسبة للأستاذ الكبير عبد العزيز الرفاعي كان شيئاً مما يثير الإعجاب، أن لشيخنا سماحة السيد الندوي اطلاعاً واسعاً على متون الحديث ، ولكنه بالنسبة لنا نحن تلامذته لم يكن شيئاً غريباً فقد عرفنا طول باعه في هذا الفن الشريف منذ تتلمذنا عليه قبل نصف قرن تقريباً .

فقد عكف شيخنا الجليل حفظه الله على دراسة الحديث زمناً غير قصير ، وقد اطلعت على إجازة رواية الحديث ، وسمعت منه غير مرة أنه تتلمذ في الحديث النبوي الشريف على شيخه العلامة حيدر حسن بن المرحوم أحمد حسن الطونكي الذي كان تلميذاً لشيخه العلامة رأس المحدثين ، شيخ الإسلام حسين بن محسن الأنصاري اليماني الخزرجي السعدي ، (نسبة إلى سعد بن عبادة رئيس الخزرج صاحب رسول الله ﷺ) وهو أخذ علم الحديث عن الشريف الإمام محمد بن ناصر الحسيني الحازمي والقاضي العلامة أحمد الشوكاني ، كلاهما عن والد الثاني القاضي محمد بن علي الشوكاني الصنعاني صاحب « نيل الأوطار » كما كنا نعرف أنه تتلمذ على شيخ الإسلام في الهند العلامة الشيخ حسين أحمد المدني شيخ أساتذة الحديث الشريف في دار العلوم ديوبند ، مما يضاف إلى ذلك إلى أن سماحته أجازه في الحديث والرواية العلامة الشيخ عبد الرحمن المباركفوري صاحب « تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي » .

وزد على هذا فإن القرآن والحديث كانا شعاراً ودثاراً لآبائه وأجداده ، وهم الذين قاموا بالدعوة إلى التوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى ، وكافحوا وجاهدوا ضد البدع الفاشية في المجتمع الإسلامي الهندي في عصورهم ، وتصلبهم في اتباع السنة ونبذهم وإنكارهم على البدع والخرافات أمر يعرفون به ، وأصبحت عقيدة التوحيد والتمسك بالسنة شعاراً مميزاً لأفراد هذه الأسرة ـ ومواقف الإمام المجاهد السيد أحمد الشهيد رحمه الله في رد المنكرات ونبذ الخرافات ، والدعوة إلى اتباع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وجهاده لإعلاء كلمة الله وإقامة الحق أمر

إن لم يعرفه أحد فإنه لم يطلع على شيء من تاريخ الإسلام في الهند ـ.

ومن لطف الله بعلماء هذه الأسرة الكريمة أنه مهما كان اختصاص أحدهم في فرع من فروع العلوم ولكنه لا ينسى واجبه نحو الدعوة إلى الله وإصلاح المجتمع ، ويعرف كل مثَّقف بالثقافة الإسلامية أن اختصاص والد شيخنا الجليل ، العلامة الشريف عبد الحي الحسني رحمه الله كان التاريخ الإسلامي في الهند ، وكتابه الشهير « نزهة الخواطر » في ثمانية أجزاء وكتاب « الثقافة الإسلامية في الهند » و« الهند في العهد الإسلامي » تشهد بأن صاحبها كان مؤرخاً إسلامياً ولكن كتابه « تهذيب الأخلاق » وهو مجموعة الأحاديث النبوية في العقيدة والسلوك ينبىء عما جبل عليه من حب السنة المطهرة وكان رحمه الله مضطلعاً بعلم الحديث وهو من تلاميذ الشيخ العلامة حسين بن محسن الأنصاري اليماني رحمه الله الممتازين ، وأجازه في الحديث الشيخ العلامة السيد نذير حسين الدهلوي إجازة خاصة .

لا شك أن كتب سماحة شيخنا الجليل قبل هذا السِّفْر المبارك « المدخل إلى دراسات الحديث النبوي الشريف » طرقت موضوعات دينية اجتماعية دعوية ، بجانب دراسات قرآنية ، ولكنه في أوج انشغاله بإرشاد الأمة الإسلامية وتوجيه وقيادة حركات المقاومة الإسلامية وحزنه العميق على مآسي الأمَّة العربية وهمه المتواصل لما يشاهده من النكسات المتوالية لأمة الإسلام في كل مكان ، لم ينس أن يقوم بترجمة كتاب « تقوية الإيمان » للمجاهد الكبير الشيخ محمد إسماعيل الدهلوي إلى العربية مع التعليق عليه[1] فإنه خير ما كتب وأقواه في شرح العقيدة

---

(١) وقد طبع باسم « رسالة التوحيد » في مطبعة ندوة العلماء .

الإسلامية ، وبيان المعتقدات الفاسدة وردها ثم يأتي هذا الكتاب الذي نسعد بمطالعته وليس هذا إلا اندفاع طبيعي لما أودعه الله قلبه حباً للسنة المطهرة وحنيناً لا يقارنه حنين آخر ؛ لشخص النبي ﷺ ويقول العلماء صدقاً وعدلًا أنه لكل فن موضوع ، وموضوع الحديث النبوي الشريف هو شخص رسول الله ﷺ ، فصدور هذا الكتاب من هذا القلب الرقيق والقلم الفياض يدل على عرق دساس ، وطبع مجبول على حب من هو موضوع علم الحديث الشريف ﷺ ، والشيء من معدنه لا يستغرب .

و « المدخل إلى دراسة الحديث النبوي الشريف » الذي نسعد بمطالعته الآن لا يختلف عن كتبه التي انتشرت في العالم الإسلامي ، والأمر الجامع لكل ما كتبه ويكتبه الشيخ هو - إلى حد علمي ومعرفتي - « الابتكار والإبداع » إنه لم يأت بشيء جديد من عند نفسه ، ولم يحدث فلسفة ، ولم يوجد فكرة شاذة في التاريخ والاجتماع ، ولكنه قدَّم كل ما يسَّر الله له أن يقدِّم ، في لباس مبتكر لم تسبق إليه الأذهان ، فمن كتبه الكتاب الذي طبقت شهرته الآفاق « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » إلى « السيرة النبوية » على صاحبها الصلاة والسلام ومحاضراته الدعوية ابتداءً من « إلى ممثلي البلاد الإسلامية » إلى « ردة ولا أبا بكر لها » واسمعياته « اسمعي يا مصر » ، « اسمعي يا سورية » « اسمعي يا زهرة الصحراء » و « اسمعي يا إيران » « اسمعوها مني صريحة أيها العرب » كلها ترمي إلى هدف واحد وهو إيقاظ المسلمين ، وبعث الهمم الخامدة نحو الدعوة الإسلامية ، ومناشدة العرب الأقحاح أن يقوموا بواجبهم نحو الدعوة إلى الله وبكل ما آتاهم من قوة وعزيمة وغيرة على الحق ، فالأمر الجامع في كل ما كتب أنه رزق من الله قوة الإبداع والابتكار ، يكسوهما قوة جمال التعبير ، وصدق العاطفة ،

ورقة الشعور والتحمُّس الذي جبل عليه في إعلاء كلمة الله ، فيزداد النفع بكتبه ، وتهوى القلوب إليها .

و « المدخل إلى دراسات الحديث النبوي الشريف » لا يختلف في الميزة التأليفية لسماحة المؤلف ، إلا أنه ملأ فراغاً كبيراً في الدراسات للحديث الشريف ، حيث من المشاهد أنه من يقبل على هذه الدراسات يفاجأ بشيء لم تسبق له معرفته ، فإنه إما يدرس الحديث المقرر في المنهج التعليمي المدروس ، على سبيل التقليد من دون معرفة لبعد مراميه ، وعمق معناه ، وأهمية مكانة السنة في التشريع الإسلامي ، وجهود الأئمة من السلف الصالح ، وإما من يدرس وفي نفسه تطلعات إلى معرفة حقيقة الحديث ولا يستبعد أن تعتمل الشكوك في صدره عن مصدر الحديث ، وتدوينه ، وسبب التأخير في جمعه ، وقد أثار الحاقدون ـ وعلى رأسهم المستشرقون ـ أنواعاً من الشكوك حول حجية الحديث ، ونبغ في كل بلد إسلامي من ضعاف النفوس من يردد أصداء المعاندين ، تتحد مواقفهم وتختلف لهجاتهم ولغاتهم ، فكان من الضروري أن يقدم للطالب دراسة مستفيضة تحوي أهم ما يجب أن يعلمه قبل البدء في دراسة الحديث الشريف .

وإذا تصفَّحنا هذا السِّفْر الصغير في حجمه والكبير في معانيه ، نجد الباب الأول « السر الإلهي وحكمة الله في وجود علم الحديث النبوي وبقائه وعناية الأمة به » بحثاً يمتاز بالجدية والموضوعية ، والابتكار المشهود في كتب المؤلف حفظه الله ، فقد عرف الحديث النبوي الشريف في هالة من الجمال والروعة ، يقنع القارىء ـ غير المعاند والجاحد ـ برزانة هذا الفن الشريف ومكانته ومهابته في الدين ، ومما

لم تسبق إليه الأذهان قوله « إن الحديث تعويض الأمة عن نحت التماثيل وصنع الصور وتناقل الأساطير » وهذا الفصل على قلة كلماته كبير في معانيه لا يبلغها باحث إلا بعد دراسات متنوعة في تاريخ الأديان والمجتمعات وبعد معرفة البواعث النفسية للأمم التي ضلت الطريق وانحرفت عن الصراط المستقيم ، وفي هذا الباب نفسه أوضح المؤلف أن تأخير الجمع والتدوين للحديث كان مبنياً على مصلحة ربانية وإن يكن هذا ، كان القرآن الكريم ـ معاذ الله ـ سفراً مثل أسفار تلمود والأناجيل التي خالطت متونها شروح علمائها وأحاديثهم .

ومما اهتدى إليه المؤلف حفظه الله ، أن حفظ الحديث النبوي يدل على خلود هذا الدين وختم الرسالات السماوية على رسول الله ﷺ ، والحديث ميزان يوزن فيه في كل عصر وجيل حسبتها ورقابتها ، واستدل على ذلك بالآيات البينات من القرآن الكريم ، والحديث عند المؤلف حفظه الله أقوى باعث على محاربة الفساد والبدع ، ومصدر قيام المصلحين والمجددين ، وأبدع سماحة المؤلف في تعليل أمر هام وجد فيه المعاندون مدخلاً للشكوك في حجية الحديث الشريف ، وهو أن الحديث لم يدوَّن إلَّا في عصر سيدنا عمر بن عبد العزيز ، وهذه المدة الطويلة من عصر النبي ﷺ إلى عصر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز (المتوفى سنة ١٠١هـ) تكفي لمحو الآثار وتهيِّىء الفرصة للمفسدين للاختلاق وإدخال الموضوع في مجموعة الصحاح ، فأجاب المؤلف حفظه الله أن منع سيدنا عمر رضي الله عنه عن كتابة الحديث كان مبنياً على حكمة بالغة كي لا يلتبس كلام الله بكلام الرسول ﷺ ، وبعد أن زالت المخافة من التباس القرآن بالحديث أجازه الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وكان الناس يتناقلون أحاديث الرسول ﷺ ويحفظونها في

قلوبهم ، زد على هذا أن المحدثين اعتنوا بنقد كل راو يروي حديثاً عن رسول الله ﷺ حتى تألفت مجموعات لأسماء الرجال يبلغ عددهم إلى نصف مليون شخص ، ولا يوجد في تاريخ أمة من الأمم عناية قوم بأحاديث الرسول وتنقيحها وضبطها وردها إلى الصحيح ونبذها الضعيف والمرفوع ، مثل ما اعتنى به رجالات الأمة الإسلامية .

والباب الثاني يتضمن تراجم مختصرة لجامعي الصحاح والسنن والمسانيد مع سرد جوانب ممتازة في حياتهم وخصائصهم وخصائص مجامعهم ومسنداتهم وطرق سرد للأحاديث المنفردة لكل جامع ، وهذا الفصل يزيد اقتناع الطالب والمطلع على الكتاب بوجاهة هذا الفن ومكانته في الدين ، وقد دعم كل ما قال في هذا الفصل بأقوال المؤرخين والكتاب المعاصرين ، كما ذكر العلوم المشتقة من الحديث النبوي الشريف مثل الجرح والتعديل ، وأسماء الرجال ، والفقه المقارن ومحاكمة المذاهب والاجتهادات في ضوء الكتاب والسنة ، ومعاجم الحديث ، وقد آتى كل ذي حق حقه بإشادة عمله ، وجهده وجهاده ونبوغه وخصائصه بقلب واسع وصدر رحيب ، من غير بخس أو تقليل شأن عامل من العاملين لله ولدينه .

وقد أضاف بعد هذا البحث المتزن العادل مما يراه من بصيرته التي ميز الله بها المؤلف فصلاً في بيان مرئياته عن أهمية الحديث الشريف في العصر الراهن ، وأشار إلى فتن يثيرها المعاندون بين حين وآخر ترمي إلى إنكار الحديث والسنة ، ومن البواعث الأخيرة إلى إثارة هذه البلبلة الفكرية جنوح بعض المثقفين أو أشباه المثقفين إلى ما استوردوه من الغرب ، والسيطرة العقلية للغرب على الأمم المتخلفة في الصناعات

والتكنولوجيا ، وينتهي المؤلف إلى رأيه الصائب أن التشكيك في حجية الحديث وإنكار السنة مؤامرة على الإسلام متبوع بالخيبة والإخفاق .

واختتم هذا العمل الجاد بنصحه الكريم وتوجيهاته وتجارب دراسته ، وهذا الختام يستحق أن يطلع عليه كل مدرس ودارس وباحث ، تصحيح النية والإخلاص ، والاجتناب من كسب السمعة بعمل يجب أن يكون خالصاً لمرضاته .

يرى كاتب هذه السطور أن هذا السِّفْر الغالي بمثل أسلوب شيخنا الجليل حفظه الله بأروع مميزاته ، ففيه :

١ ـ تدفق طبيعي حماسي في بيان أهمية الحديث وتشخيص مكانته في الشريعة .

٢ ـ تعبيرات رائعة ، لم يسبق لي الاطلاع عليها مثل وصفه للإحسان « الطب النبوي » وهذا الوصف يزيل عن وجه الإحسان غبار الشبهات لمن هدى الله قلبه إلى الحق ، وتعريف الأمة التي لا تحتفظ بالأسوة « محرومة الإرث ، محذوفة الصور ، مقطوعة الأصل » ووصف الحديث أنه « صورة حية لذلك العهد (عهد النبي ﷺ) وتذكرة ناطقة » للحياة النبوية تزخر بكيفيات العهد النبوي وتتعطر بأريجه وتفوه برياه .

٣ ـ إعطاؤه حق كل مؤلف ما يستحقه من الإعجاب والإشادة من دون أي بخس ونقصان ، فذكر أصحاب المراجع بما يستحقونه من الإعظام والإجلال .

٤ ـ لم يمنعه خلافات فقهية من إشادة أعمال قام بها الذين يتبعون الفقه المغاير لما يتبعه المؤلف .

٥ ـ حرصه الشديد على أن يناشد قادة العلم والفكر أن لا يجعلوا الخلافات الفقهية مبعث نزاع وفساد بإبرار حماسهم الزائد في إنكار أمور استقر عليها رأي الجهات المختلفة ورضوا عن الأخذ بما عندهم من الاتجاه الفقهي والالتزام به .

هذا ما يتجلى للمتصفح القاصر الذي يرى أن هذا الكتاب قد ملأ فراغاً في المكتبة الإسلامية ، ونموذج رائع لمن يريد المعرفة .

والله ولي التوفيق وعليه التكلان .

كتبه العبد الفقير إلى مولاه
عبد الله عباس الندوي

* * *

السر الإلهي وحكمة الله

في وجود علم الحديث النبوي وبقائه وعناية الأمة به

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد قائد الغر المحجَّلين ، وعلى أصحابه حفظة الكتاب والسنة ، وحملة لواء الدين ، ومن تبعهم بإحسان ، من العلماء الراسخين ، الذين ينفون عن الإسلام تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .

أما بعد !

فإنَّ علم الحديث من العلوم التي ألهم الله هذه الأمة (في أول عهدها) العناية به ، والجهاد في سبيل حفظه ، وتدوينه ، ونقله ونشره ، والتهالك على تلقيه وجمعه ، والتنافس في ضبطه وإتقانه ، والاهتمام بكل ما يتصل به من علوم وفنون ، إلهاماً قوياً واضحاً ، تجلَّت فيه حكمة الله وعنايته بصيانة هذا الدين وإكماله ، حتى كان ذلك دافعاً نفسياً لا تعلم الأمة مصدره ، ولا تستطيع له قهراً ولا دفعاً ، وكأن سائقاً يسوقها نحو هذه الغاية سوقاً قوياً ، عنيفاً في الظاهر ، فلا تستطيع مقاومته ، رفيقاً لطيفاً في الباطن ، فلا تشعر بثقله ووطأته ، وتجد في الانسياق إليه والاستجابة له ، لذَّة لا تعدلها لذَّة ، وراحة لا تعدلها راحة ، فتهون لأجل ذلك عليها المتاعب والمشقَّات ، وتقصر في

سبيلها الأبعاد والمسافات ، وتتدفَّق على طلبه من مظانه ، وحفظه وروايته من أهله ، ونقله من مكان إلى مكان ، سيول وجيوش من أذكياء الأمم والشعوب ، ومن نوابغ البلاد والعباد ، لا يعرف نظيرهم في تاريخ أمة وحضارة ، ولا في تاريخ علم وثقافة .

اقتضاء ختم النبوة ، وملء الفراغ ، والعصمة من رد الفعل :

وكان كل ذلك سراً من الأسرار الإلهية ، وبرهاناً ساطعاً على مدى عناية الله تعالى ، بهذه الرسالة التي ختم الله بها الرسالات ، وبهذه الشريعة التي قضى الله ببقائها وخلودها ، وانتشارها وعمومها ، لجميع العصور والأجيال ، فهذا الإلهام الذي كان سبباً لاندفاع الأمة إلى حفظ الحديث النبوي مرة ، وإلى استنباط الأحكام وتفريع الفروع مرة أخرى ، وإلى تدوين العلوم المنبثقة من القرآن من صرف ونحو وبلاغة مرة ثالثة ، وإلى تأليف الكتب ووضع المعاجم ، وتأسيس المدارس لتعليم الكتاب والسنة مرة رابعة ، وإلى العناية بتزكية النفوس وتهذيب الأخلاق ، وتحصيل حقيقة الإيمان ، والوصول إلى درجة الإحسان ، و« تجديد الطب النبوي » في معالجة القلوب والنفوس ، ووضع أسس هذا العلم ، وإرساء قواعده ، إلى غير ذلك مما ألهمه الله أزكى نفوس هذه الأمة وأعظمها رسوخاً في العلم والدين ، وأكثرها حظاً في الإيمان واليقين ، من أجلى دلائل ختم النبوة وإكمال هذا الدين ، وأن عناية الله لا تفارقه لحظة واحدة ، وأن مَدَده لا يتخلف عنه في حين من الأحيان .

تعويض الأمة عن نحت التماثيل وصنع الصور وتناقل الأساطير :

من هنا كان الرسول الأعظم ﷺ وهو الشخصية الفريدة ـ من بين الرسل والعظماء ـ التي نعرف عنها كل دقيق وجليل ، ونعرف عنها من

دقائق الأخلاق والعادات ، والميول والرغبات ، والقول والعمل ، ما لا نعرفه عن كثير من الشخصيات التي مضت قريباً ، بل عن الشخصيات المعاصرة أحياناً ، وذلك كله بفضل « الحديث » الذي سجّل لنا هذه الحياة المباركة العظيمة .

لقد اعتادت الأمم القديمة ، والديانات ، أن تصوِّر أنبياءها ، وأن تنحت لهم تماثيل وأصناماً ، تمثلهم للأجيال المعاصرة ، وتجدد ذكراهم ، ونشأت من ذلك الوثنية ، وعبادة التماثيل ، التي يعرفها الجميع ، ونشأت من ذلك آفات ، لا تزال الأمم والديانات تعانيها ، وقد لطف الله بهذه الأمة وبالإنسانية ، إذ حرم عليها تصوير الأنبياء والعظماء ، ونحت تماثيلهم ، وأبدلها بهذا الحديث النبوي ، الذي هو مجموع صور ناطقة يتعرَّف بها الإنسان بنبيه ، ويسعد بصحبته ، وكأنه حضر مجلسه ، واستمع لحديثه ، وقضى معه مدة من الزمان ، يسمع كلامه ، ويشاهد فعله ، ويدرس سيرته ، فكان ضياع هذه الثروة ـ لا سمح الله بذلك ـ كارثة لا تقدَّر ، وخسارة لا تعوَّض .

ميزان لوزن الأمة في كل عصر وجيل ، وحسبتها ورقابتها :

ثم إن الحديث ميزان عادل ، يستطيع المصلحون في كل عصر أن يزنوا فيه أعمال الأمة واتجاهاتها ، ويعرفوا الانحراف الواقع في سير هذه الأمة ، ولا يتأتى الاعتدال الكامل في الأخلاق والأعمال إلا بالجمع بين القرآن وبين الحديث ، الذي هو يملأ هذا الفراغ ، الذي وقع بانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وهذه الفجوة لا بد منها في السنن الإلهية .

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : ٣٠] .

فلولا الحديث ، الذي يمثل هذه الحياة المعتدلة الكاملة المتزنة ، ولولا التوجيهات النبوية الحكيمة ، ولولا هذه الأحكام ، التي أخذ بها الرسول المجتمع الإسلامي ، لوقعت هذه الأمة في إفراط وتفريط ، واختل الاتزان ، وفقد المثال العملي الذي حث الله على الاقتداء به ، بقوله :

﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

وبقوله :

﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

والذي يطلبه الإنسان ، ويستمدُّ منه الثقة والقوة في الحياة ، ويقتنع بأن تطبيق الأحكام الدينية على الحياة ميسور وواقع .

مصدر قيام المصلحين والمجددين وأقوى باعث على محاربة الفساد والبدع :

ثم إن الحديث زاخر بالحياة والقوة والتأثير ، الذي لم يزل يبعث على الاتباع والزهد والتقوى ، ولم يزل باعثاً على محاربة الفساد والبدع ، وحسبة المجتمع ، ولم يزل يظهر بتأثيره في كل عصر وبلد ، من رفع راية الإصلاح والتجديد ، وحارب البدع والخرافات ، والعادات الجاهلية ، ودعا إلى الدين الخالص والإسلام الصحيح ، لذلك كلِّه كان الحديث من حاجات هذه الأمة الأساسية ، وكان لابدَّ من تقييده وتسجيله ، وحفظه ونشره .

سر التريث في تدوين الحديث على مستوى علمي وتأليفي كبير في عصر الصحابة الأولين :

لقد كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم ـ وفي مقدمتهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي كان حكيماً ، بعيد النظر فيما يتصل بمصالح الإسلام والمسلمين ، ومستقبل هذا الدين ـ في التريث في العناية بتدوين السنة كتابياً ونشراً ، وإن كان عصر النبي ﷺ لم يخل من كتابة بعض الحديث[١] ، وقد أحسن العلامة الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله . إذ قال في كتابه « السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي » : « لقد أضيف إلى هذا[٢] رغبة عمر رضي الله عنه أن لا يكثروا من التحديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام كي لا ينشغل الناس بالحديث عن القرآن[٣] ، والقرآن غض طري ، فما

---

(١) راجع بحث كتابة السنة في كتاب « السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي » للفاضل الجليل الدكتور مصطفى حسني السباعي رحمه الله ص٥٨ ـ ٦١ ، وباب موقف الصحابة بالحديث ، بعد وفاة الرسول ﷺ ص٦٢ ـ ٦٦ .

(٢) التحذير من الإكثار من رواية الحديث .

(٣) كما وقع في بعض الديانات والأمم السابقة من الخلط بين الوحي السماوي وكلام الأنبياء وعلماء هذه الديانات وشارحي الصحف ، ومن الالتباس والتلبيس ، يشهد بذلك موقف اليهود مع التوراة ، والتلمود . . فقد يفوق الإجلال للأخير والاعتماد عليه الإجلال للتوراة والاعتماد عليها ، وقد وقع ذلك لليهود بصورة عملية واضحة ، فقد عكفوا على صحف التلمود ، تلاوة واحتجاجاً ، وشغفاً ، وهو اسم عام للمشني والجيمارة يحتوي على الشريعة الشفاهية وتقليدات أخرى لليهود ، ونسخ التلمود ـ وأكثرها في ١٢ مجلداً ـ تحتوي على التفاسير والحواشي ، والكلام المأثور عن أحبار اليهود=

أحوج المسلمين إلى حفظه وتناقله ، والتثبُّت فيه والوقوف على دراسته ، روى الشعبي عن قرظة بن كعب ، قال : خرجنا نريد العراق فمشى معنا عمر إلى صرار ، فتوضأ وغسل اثنتين ، ثم قال : أتدرون لم مشيت معكم ؟ قالوا : نعم ! نحن أصحاب رسول الله ﷺ مشيت معنا ، فقال : إنكم تأتون أهل قرية لهم دوي بالقرآن كدوي النحل ، فلا تصدوهم بالحديث فتشغلوهم ، جوِّدوا القرآن وأقلُّوا الرواية عن رسول الله ﷺ وامضوا وأنا شريككم . فلما قدم قرظة ، قالوا : حدثنا قال نهانا عمر بن الخطاب رضي الله عنه »[1] .

وعن عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن فاستشار في ذلك أصحاب رسول الله ﷺ فأشاروا عليه أن يكتبها ، فطفق عمر يستخير الله فيها شأناً ، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له ، فقال : « إني كنت أريد أن أكتب السنن ، وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها ، وتركوا كتاب الله ، وإني ـ والله ـ لا ألبس كتاب الله بشيء أبداً »[2] .

دور العناية بجمع الحديث وتدوينه :

وقد قدر الله أن يقوم بما يطلبه الزمان ، وبما يتوقف عليه مستقبل هذه الأمة ، التشريعي ، والعملي ، والعلمي ، إلى حد كبير ، سميه

= وقادتهم (العلامة المؤلف) .

(١) « السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي » (إحالة على جامع بيان العلم ٢/ ١٢٠) .

(٢) جامع بيان العلم ١/ ٧٦ .

وسبطه[1] ، وخليفة المسلمين في عصره ، الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، فكان أول ما عني به ـ بعدما ما تقلد الخلافة ـ هو علم الحديث ، فكانت له هذه السعادة واللفتة الكريمة العميقة ، وبعد النظر وثقوب الفكر في الإشارة والتوجيه ، كما كان لجده العظيم من جهة أمه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لجمع القرآن ، فإنه هو الذي أشار وألح على خليفة الرسول سيدنا أبي بكر الصديق لجمعه ، فقد زالت المخافة من التباس القرآن بالحديث ، أو انشغال المسلمين بالحديث النبوي عن الكتاب الإلهي ، فقد كثر حفاظه والغيارى عليه ، وعم انتشاره في بلاد المسلمين وتحقق ما وعد الله به وأخبر .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

وقد كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى أحد كبار علماء الحديث وأوعية العلم في عصره أبي بكر بن محمد بن حزم : « انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه ، فإني خِفْتُ دروسَ العلم[2] وذهاب العلماء » وأشار عليه بالعناية الخاصة بمجاميع عمرة ابنة عبد الرحمن الأنصارية ، وقاسم بن محمد بن أبي بكر لأهميتهما ، ولم يكتف بأبي بكر بن الحزم ، بل كتب إلى عماله بالأقاليم :

« انظروا إلى حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه »[3] .

---

(١) كانت أم عمر بن عبد العزيز ، واسمها أم عاصم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٢) دروس العلم : زواله وذهاب أثره .

(٣) تاريخ أصبهان لأبي نعيم .

ولم يكتف بالحث على ذلك ، بل سعى في تيسير هذه المهمة ، فأجرى الرزق على العلماء ورتب لهم الرواتب ليتوفروا على نشر العلم ويكفوا مؤونة الاكتساب ، قال محمد بن الحكم :

« وبعث عمر بن عبد العزيز يزيد بن أبي مالك ، والحارث بن محمد إلى البادية أن يعلما الناس السنة ، وأجرى عليهم الرزق ، فقبل يزيد ولم يقبل الحارث ، وقال : ما كنت لآخذ على علم علمنيه الله أجراً ، فذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز ، فقال : ما نعلم بما صنع يزيد بأساً وأكثر الله فينا مثل الحارث »[١] .

حركة الجمع والتدوين في القرن الأول والثاني :

ولم تكن حركة كتابة الحديث وجمعه بدعاً من الأمر في خلافة عمر بن عبد العزيز لم يسبق له نظير ، فقد بدأ هذا الاهتمام والعناية بكتابة الحديث في عهد النبي ﷺ وبعد وفاته مباشرة على طريقة غير نظامية ولا رسمية ، فقد جاء في كتب التاريخ وتراجم الصحابة أسماء مجاميع خاصة منسوبة إلى جامعيها .

كان لعبد الله بن عمرو بن العاص مجموعة تسمى « الصادقة »[٢] وكان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه « صحيفة »[٣] وكان لأنس

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص١٦٧ .
(٢) جامع بيان العلم وفضله ، وما ينبغي في روايته وحمله لابن عبد البر ج١ ص٧٢ .
(٣) الجامع الصحيح للبخاري كتاب العلم ، باب كتابة العلم .

صحيفة ، كان يبرزها إذا اجتمع الناس[1] ونقل الجمع والكتابة عن عبد الله بن عباس[2] وعبد الله بن مسعود[3] وعن جابر بن عبد الله[4] .

وتدل صحيفة همام بن منبه (م١٠١ أو ١٠٢هـ) صاحب أبي هريرة رضي الله عنه ، التي يرجع تأليفها إلى أواسط القرن الأول (لأن أبا هريرة توفي نحو سنة ٥٨ للهجرة ، وهو من إملائه) على تقدُّم هذه الحركة[5] ، وهي من أقدم الصحف التي عثر عليها بنصها[6] .

ولم ينتصف القرن الثاني حتى كانت حركة الجمع والتدوين أنشط وأقوى ، وكان ممن سبق إليها من رجال هذا القرن ابن شهاب الزهري (م١٢٤هـ) وابن جريج المكي (م١٥٠هـ) وابن إسحاق (م١٥١هـ)

---

(١) تقييد العلم ص٥ .

(٢) الترمذي كتاب العلل .

(٣) جامع بيان العلم وفضله ، وما ينبغي في روايته وحمله لابن عبد البر ج١ ص٧٢ .

(٤) صحيح مسلم .

(٥) راجع للاطلاع على أسماء الصحف التي كُتبت ودُونت في حياة النبي ﷺ ، كتاب « صحيفة همام بن منبه » (في أردو) للدكتور محمد حميد الله طبع ١٣٧٤هـ من حيدر آباد .

(٦) قد وُجدتْ « صحيفة همام بن منبه » في المكتبة الظاهرية بدمشق ، وفي مكتبة برلين (في مدينة تيونيكن) وفي مكتبة جامعة أنقرة في تركيا ، ونشرت في مجلة المجمع العلمي العربي ، دمشق في أعدادها الأربعة سنة ١٣٧٢هـ (١٩٥٣م) ونشرت مفردة ككتاب ، والفضل في إبرازها وتحقيقها يرجع إلى الدكتور حميد الله الحيدر آبادي (راجع كتابه صحيفة همام بن منبه) طبع حيدر آباد سنة (١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م) .

ومعمر اليمني (م١٥٣هـ) وسعيد بن أبي عروبة المدني (م١٥٦هـ) والربيع بن صبيح[١] (م١٦٠هـ) وسفيان الثوري (م١٦١هـ) ومالك ابن أنس صاحب الموطأ (م١٧٩هـ) والليث بن سعد (م١٧٥هـ) وابن المبارك (م١٨١هـ) ثم تتابع الناس[٢] .

الصحاح الستة :

وهكذا أصبح الحديث موضع عناية هذه الأمة بعد القرآن ، وانصرفت إلى جمعه وتدوينه ، وضبطه وتنقيحه همم المخلصين المجاهدين ، وما زالوا يعنون به ، ويتفانون في سبيله ، حتى خرجت من هذه المجموعة الكبيرة التي كانت منبثَّة في الآفاق ، مجاميع صحيحة

---

(١) هو الربيع بن صَبيح السعدي أبو بكر . قال الجلبي في « كشف الظنون » : إنه أول من صنف في الإسلام ، خرج غازياً إلى السند فيمن خرج مع عبد الملك بن شهاب المسمعي من مطوعة أهل البصرة ، فمات ببلده باريد على الساحل بأرض الهند ، كانت وفاته سنة ستين ومئة كما في « المغني » (ملخصاً من الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام ج١) ، وباريد معرب بهاء بهوت ، وهي قرية من قرى بهروج من بلاد كجرات على خورنهر نربده (رجال السند والهند إلى القرن السابع ، للقاضي أطهر المباركفوري) .

(٢) يحسن الرجوع في الاطلاع على العناية بجمع الحديث وتدوينه في القرن الأول والثاني إلى كتاب « تدوين الحديث » القيم للعلامة السيد مناظر أحسن الكيلاني في لغة أردو ، نقله إلى العربية فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الرزاق إسكندر ، مدير جامعة بنوري تاون الإسلامية ، كراتشي (باكستان) لكن الكتاب لا يزال مخطوطة . طبع المجلس العلمي بباكستان ، والكتاب القيم « السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي » للأستاذ الكبير الدكتور مصطفى السباعي ، طبع المكتب الإسلامي ، بدمشق .

منقَّحة للحديث النبوي ، كان في مقدّمتها هذه الكتب الستة التي تواضع علماء هذا الشأن وأصحاب الصناعة ، والمشتغلون بالعلوم الدينية ، والناقدون لها ، على صحتها وتقديمها على غيرها ، وهي الجامع الصحيح للبخاري ، والجامع الصحيح لمسلم ، والجامع للترمذي ، والسنن لأبي داود السجستاني ، والسنن للنسائي ، والسنن لابن ماجه[1] واصطلح العلماء على تسميتها بالصحاح الستة .

ثم يمتاز بينها ويتفوق في الصحة والقبول والاستفاضة كتابان : أولهما « الجامع الصحيح » لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي البخاري (م٢٥٦هـ) والثاني « الجامع الصحيح » لمسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (م٢٦١هـ) واصطلح الناس على تسميتهما « بالصحيحين » وكل ما يرويانه من حديث بـ« متفق عليه » وقد قال إمام الحديث في العصور المتأخرة ، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي[2] ، (م١١٧٦هـ) في كتابه « حجة الله البالغة » :

« أمَّا الصحيحان فقد اتفق المحدِّثون على أن جميع ما فيهما من المتصل المرفوع صحيح بالقطع ، وأنهما متواتران إلى مصنفيهما ، وأن كل ما يهون أمرهما فهو مبتدع متبع غير سبيل المؤمنين »[3] .

وقد ظلت هذه الكتب الستة ـ ولا تزال ـ مصدراً من مصادر

---

(١) يضاف إلى هذه الكتب الستة ، الموطأ للإمام مالك بن أنس ، وسيأتي الحديث عنه .

(٢) هو المعروف بالإمام ولي الله الدهلوي صاحب « حجة الله البالغة » و « إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء » .

(٣) حجة الله البالغة ج١ ص١٠٦

الإصلاح والتجديد والتفكير الإسلامي الصحيح في الأمة الإسلامية ، تلقى منه المصلحون في عصورهم العلم الديني الصحيح ، والفكر الإسلامي النقي ، واحتجوا بأحاديثه ، واستندوا إليها في دعوتهم إلى الدين والإصلاح ، وفي محاربتهم للبدع والفتن والفساد ، ولا يستغني عن هذا المصدر كل من يريد إرجاع المسلمين في عصره إلى الدين الخالص والإسلام الكامل ، ويريد أن يوجد صلة بينهم وبين الحياة النبوية ، والأسوة الكاملة ، وكل من تلجئه الحاجة وتطورات العصر إلى استنباط الأحكام الجديدة .

* * *

تعريف موجز بأصحاب الصحاح الستة
ونبذة من تراجمهم وخصائصهم[(١)]

إمام الحفاظ محمد بن إسماعيل البخاري صاحب الجامع الصحيح :

هو شيخ الإسلام إمام الحفاظ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردذبه الجعفي مولاهم البخاري صاحب الصحيح والتصانيف ، مولده في شوال سنة أربع وتسعين ومئة (١٩٤هـ) نشأ يتيماً ورحل مع أمه وأخيه سنة عشر ومئتين ، بعد أن سمع مرويَّات بلده إلى بلخ ، ثم إلى مكة ، والبصرة ، والكوفة ، وسمع من شيوخ هذه المدن ، ثم بالشام وعسقلان ، وحمص ودمشق ، وسمع من شيوخها ، وأئمة الحديث فيها . شدا وصنَّف وحدَّث وما في وجهه شعرة ، وكان رأساً في الذكاء ، رأساً في العلم ، ورأساً في الورع والعبادة ، حدَّث عنه الترمذي وخلق كثير ، روي عنه أنه قال : كتبت عن أكثر من ألف رجل ، قال محمد بن خمرويه : سمعت البخاري يقول : أحفظ مئة ألف حديث صحيح ، وأحفظ مئتي ألف حديث غير صحيح ، قال ابن

---

(١) اعتمد العلامة المؤلف في تراجم هؤلاء الأئمة أصحاب الصحاح الستة في الغالب على كتاب « تذكرة الحفاظ » للإمام أبي عبد الله شمس الدين محمد الذهبي (م٧٤٨هـ) .

خزيمة : ما تحت أديم السماء أعلم بالحديث من البخاري .

مات ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين ومئتين (٢٥٦هـ)[1] .

منزلته في فن الحديث وعبقريته :

من أعجب ما روي في ذلك هو ما يرويه أبو أحمد بن عدي الحافظ ، عن الإمام محمد بن إسماعيل البخاري صاحب الجامع الصحيح ، قال : سمعت عدة من مشايخ بغداد يقولون : إن محمد بن إسماعيل البخاري قدم بغداد ، فسمع به أصحاب الحديث ، فاجتمعوا وأرادوا امتحان حفظه ، فعمدوا إلى مئة حديث ، فقلبوا متونها وأحاديثها ، وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر ، وإسناد هذا المتن لمتن آخر ، ودفعوها إلى عشر أنفس ، لكل رجل عشرة أحاديث ، وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخاري ، وأخذوا عليه الموعد للمجلس ، فحضروا وحضر جماعة من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم من البغداديين ، فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب رجل من العشرة ، فسأله عن حديث من تلك الأحاديث ، فقال : « لا أعرفه » فلم يزل يلقي عليه واحداً واحداً حتى فرغ ، والبخاري يقول : « لا أعرفه » وكان العلماء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى البعض ويقولون : « فهم الرجل » ومن كان لم يدر القصَّة ، يقضي على البخاري بالعجز والتقصير وقلَّة الحفظ ، ثم انتدب رجل من العشرة أيضاً ، فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة فقال :

---

(١) تذكرة الحفاظ ج٢ ص٥٥٥ ـ ٥٥٦ باختصار ، الطبعة الرابعة من دائرة المعارف العثمانية ، بحيدر آباد .

« لا أعرفه » فسأله عن آخر ، فقال : « لا أعرفه » فلم يزل يلقي عليه واحداً واحداً حتى فرغ من عشرته ، ويقول : « لا أعرفه » ثم انتدب الثالث والرابع إلى تمام العشرة ، حتى فرغوا من إلقاء تلك الأحاديث المقلوبة ، والبخاري لا يزيدهم على أن يقول : « لا أعرفه » فلما علم أنهم قد فرغوا التفت إلى الأول ، فقال : أما حديثك الأول فقلت كذا ، وصوابه كذا ، وحديثك الثاني كذا ، وصوابه كذا ، والثالث والرابع على الولاء حتى أتى على تمام العشرة ، فرد كل متن إلى إسناده وكل إسناد إلى متنه ، وفعل بالآخرين مثل ذلك ، فأقر الناس له بالحفظ ، وأذعنوا له بالفضل .

قال الحافظ ابن حجر بعد ما حكى هذه القصة « قلت : ما يخضع للبخاري ، فما العجب من رده الخطأ إلى الصواب ، فإنه كان حافظاً ، بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مرة واحدة » .

مزية الجامع الصحيح للبخاري وفضله ، وعناية الأمة به تلقياً ورواية ، وشرحاً وتدريساً :

ولا نعرف كتاباً من كتب البشر ـ في المكتبة الدينية العالمية ـ تناوله العلماء والمؤلفون بالشرح والتحشية والتعليق مثل ما تناولوا كتاب هذا الإمام الجليل الذي هو أصح الكتب بعد كتاب الله ، وقد كان الشرح والتعليق هو المجال العلمي الذي تظهر فيه عناية العلماء والمؤلفين في العصور القديمة ، ومقياس اهتمامهم بأثر علمي ، فكان أكثر الكتب شروحاً وتعليقات هو أعظم المؤلفات تقديراً ، وأعلاها منزلةً ، وأكثرها شهرة ، وكان أقل الكتب شروحاً وتعليقاً ، هو أخملها ذكراً ، وأقعدها شهرة وصيتاً ، فيبقى مطموراً مغموراً ، لا يسترعي انتباهاً ولا يثير

اهتماماً ، فإذا أخذ هذا المقياس ـ وهو المقياس الوحيد لنجاح كتاب في عهدنا العلمي الماضي ، والدليل القطع على احتلاله للصدارة في المجلس العلمي ـ حكمنا بأنَ « الجامع الصحيح » للبخاري قد فاز بالقدح المعلَّى في هذا الميدان ، واحتل الصدارة في مكتبتنا الإسلامية التي انبثقت عن القرآن ودعوة الإسلام ، وامتدت على مشارق الأرض ومغاربها في المساحة الأرضية المكانية ، وعلى القرن الأول إلى القرن الثالث عشر ـ على الأقل ـ في مساحتها التاريخية الزمانية ، فقد بلغ عدد شروحه والتعليقات عليه إلى مئة وواحد وثلاثين كتاباً (١٣١) ، وقد يكون العدد أكثر من هذا ، فقد كان هذا الاستقصاء مؤسساً على « كشف الظنون » للجلبي ، و « مفتاح السعادة » لطاش كبرى زاده ، و « إتحاف النبلاء » و « الديباج المذهب » و « نيل الابتهاج » ومقدمات الشروح المشهورة التي كانت في متناول يده ، و « الثقافة الإسلامية في الهند »[1] للعلامة عبد الحي الحسني رحمه الله مدير ندوة العلماء الأسبق (م١٣٤١هـ) وبعض دراساته وتتبعاته الفردية ولا شك أن العالم الإسلامي أوسع مما تخيله الجغرافيون ، والتاريخ الإسلامي العلمي أغنى مما دوَّنه المؤرخون ، وفي الزوايا خبايا لم تقع عليها عين ولم تطلع عليها الشمس .

وإن كتاب « فتح الباري » للعلامة ابن حجر العسقلاني ، الذي يقع في ثلاثة عشر (١٣) مجلداً ضخماً ، ومقدمة مبسوطة ، تكاد تكون مكتبة مستقلة في علوم الحديث ، كتاب لا يوجد له نظير في مكتبات الديانات والملل ، وإن لهذه الأمة الإسلامية أن تفتخر بهذا الأثر العلمي

---

(١) صدرت له طبعتان من مجمع اللغة العربية بدمشق .

الخالد ، وتقدمه إلى علماء الديانات والفلسفات ، ورواد الحضارات والثقافات ، كبرهان ساطع على جهاد هذه الأمة العلمي ونبوغها الفكري وولوعها بآثار نبيها والغوص فيها إلى أعماق ليست بعدها أعماق ، والوصول فيها إلى آفاق ليست وراءها آفاق .

هذا مع عدم الحط من قيمة الشروح الأخرى ـ وفي مقدمتها « عمدة القاري » للعلامة بدر الدين العيني (في ١١ مجلداً) التي هي مكتبة حافلة في النحو والعربية ، وعلوم البلاغة والأحكام المستخرجة ، والفوائد المستنبطة من الأحاديث[١] .

ثم يلي هذا المقياس ، شدة العكوف على دراسة الكتاب والتهافت على روايته ونقله ، والتنافس في حمله ونشره وضمه إلى الصدور والعض عليه بالنواجذ ، وتوارث الأجيال في تلقيه جيلاً بعد جيل ، وكابراً عن كابر ، وتلميذاً عن أستاذ ، وطبقة عن طبقة ، حتى لا تعرف فترة من الزمان ، نسج فيها عليه العنكبوت وساد عليه الظلام ، وانقطعت روايته ، وتوقفت دراسته وعبث به العابثون ، وتصرَّف فيه الخائنون المحرِّفون ، وقد تفرَّد الجامع الصحيح بهذه الميزة بعد كتاب الله ، فقد أخذ هذا الكتاب عن مؤلفه تسعون ألفاً من الرواة والحفاظ ، وتسلسل نقله وروايته حتى انتهى هذا الكتاب إلى مؤلفه ، وبلغ حد التواتر في شهرته وصحة نقله ، ونسبته إلى المؤلف ، لا ينكر ذلك ولا يتشكك فيه إلا من تشكك في المتواترات والحقائق العلمية التي

---

(١) يلحق بذلك شرح صحيح البخاري المعروف بإرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ، المعروف بالقسطلاني ، في عشرة أجزاء .

تثبت بالضرورة ، ولا يزال هذا الكتاب موضع الاهتمام والعناية وموضع التأمل والدراسة في الحلقات العلمية في العالم الإسلامي[١] .

مزية الأبواب والتراجم ولطائفها ودقائقها :

ومما تقرر عند المشتغلين بصناعة الحديث تدريساً وتصنيفاً ، وشرحاً وتحقيقاً ، أن الأبواب والتراجم في هذا الكتاب من أدقِّ البحوث والمطالب ، ومن أعمقها غوراً وأبعدها مدى ، حتى اشتهر بين العلماء أن فقه البخاري في تراجمه ، وأصبح ذلك شعاراً لهذا الكتاب يتميز به عن أقرانه الصحاح ـ على جلالة قدرها وفخامة شأنها ـ وأصبح مقياساً لفطنة العلماء ، وتوقد ذكائهم وسيلان ذهنهم ، وبعد غورهم ، واقتدارهم على فهم هذا الكتاب الجليل ، وحل غوامضه وفتح أغلاقه ، والتوصل إلى مقاصد المؤلف ، لا يشهد لمؤلف أو مدرس ببراعة في العلم وتفوُّق في التدريس ، وسعة اطلاع على الشروح والحواشي وأقوال الأئمة والفحول من المحدثين ، وطول ممارسة لتدريس هذا الكتاب الشريف ، وإضناء القوى وإفناء العمر في ذلك حتى تجمع له الشيء الكثير من هذا الباب ، وينفرد بتوجيهات وتعليلات تنحلُّ بها

---

(١) ومن شروحه المفيدة « لامع الدراري على الجامع الصحيح للإمام البخاري » وهو مجموع أمالٍ للإمام رشيد أحمد الجنجوهي ، عليه مقدمة ضافية للعلامة الشيخ محمد زكريا السهارنفوري ، وتعليقات واسعة .
وقد جمع بعض كبار أصحاب العلامة السيد أنور شاه الكشميري بعض تحقيقاته وإفاداته في درس الجامع الصحيح للبخاري ، وسماه « فيض الباري » في أربعة مجلدات ، تولى تأليفها وتحريرها الشيخ بدر عالم الميرتهي .

الألغاز وتتفتح بها الأقفال ، وتخلو عنها بطون الأسفار .

ولذلك عني بهذا الموضوع العلماء قديماً وحديثاً ، وأجالوا فيه قداحهم وأركضوا في هذا السباق جيادهم ، واعتصروا في ذلك عقولهم الراجحة وعلومهم الراسخة ، ولا نعرف أديباً أو لغوياً تعمَّق في فهم بيت من الأبيات ، ومعرفة معنى من المعاني الشعرية والوصول إلى غاية من غايات الشعراء ، مثل تعمُّق شراح الجامع الصحيح ، والمشتغلين بتدريسه في فهم مقاصد المؤلِّف وشرح كلامه .

ولا نعرف ـ على طول اشتغالنا بالتاريخ العلمي ـ مؤلفاً من مؤلفات العلماء أو الحكماء ، عني به رجال ذلك الفن ، وعكفوا على حل غوامضه ، وفك مشكلاته حتى شقوا فيه الشعرة ، مثل ما عني علماء الحديث بالجامع الصحيح ، وما ذلك إلا لإخلاص مؤلفه لعلم الحديث الشريف وانقطاعه إليه وجهاده في سبيله ، وتفانيه في ذلك[1] .

وسر الغموض في هذه الأبواب والتراجم ، تنوع مقاصد المؤلف الإمام ، وبعد مراميه وفرط ذكائه ، وحدة ذهنه وتعمقه في فهم الحديث وحرصه على الاستفادة والإفادة منه أكبر استفادة ممكنة ، فهو كنحلة حريصة توّاقة تجتهد أن تتشرَّب من الزهرة آخر قطرة من الرحيق ، ثم تحولها إلى عسل مصفى فيه شفاء للناس .

---

(١) من المؤلفات الحديثة في هذا الموضوع « الأبواب والتراجم للبخاري » للعلامة المحدث الشيخ محمد زكريا السهارنفوري (م١٤٠٢هـ) مع تقديم العلامة المؤلف ـ رحمه الله ـ ورسالة في شرح تراجم البخاري لشيخ الهند الشيخ محمود حسن الديوبندي شيخ الحديث بدار العلوم الديوبندية .

الإمام مسلم بن الحجاج القشيري :

هو الإمام الحافظ حجة الإسلام أبو الحسين القشيري النيسابوري ، يقال ولد سنة أربع ومئتين ، وأول سماعه سنة ثماني عشرة ومئتين ، وممن سمع عنهم الإمام أحمد بن حنبل وخلق كثير ، قال أحمد بن سلمة : رأيت أبا زرعة وأبا حاتم يقدمان مسلم بن الحجاج في معرفة الصحيح على مشايخ عصرهما ، وقال أبو قريش : حفاظ الدنيا أربعة ، فذكر منهم مسلماً ، وقال محمد بن الماسرجي سمعت مسلماً يقول : صنفت هذا الصحيح من ثلاثمئة ألف حديث مسموعة ، قال ابن الشرقي سمعت مسلماً يقول : ما وضعت شيئاً في كتابي هذا المسند إلا بحجة وما أسقطت منه شيئاً إلا بحجة .

مات مسلم في رجب سنة إحدى وستين ومئتين (٢٦١هـ)[١] .

ولصحيح مسلم مزايا يمتاز بها شأن الأعمال العلمية والمجهودات الفنية ، التي تصدر عن رجال قد يشتركون في فن وفي عصر ، وفي الإخلاص والجهد ، ويلتقون على أساتذة وأئمة هذا الشأن ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠] .

نذكر بعضها وأهمها[٢] :

١ ـ هو أسهل متناولاً من حيث إنه جعل لكل حديث موضعاً واحداً

---

(١) ملخص من كتاب « تذكرة الحفاظ » للذهبي .

(٢) استفاد العلامة المؤلف في ذلك من كتاب « مكانة الصحيحين » تأليف الدكتور خليل إبراهيم ملا خاطر ، أستاذ الحديث بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

يليق به ، جمع فيه طرقه التي ارتضاها واختار ذكرها ، وأورد في أسانيده المتعددة وألفاظه المختلفة فيسهل على الطالب النظر في وجوهه واستثمارها ، ويحصل له الثقة بجميع ما أورده مسلم من طرقه .

٢ ـ ومما يمتاز به صحيح مسلم أن مسلماً رحمه الله يسوق الحديث بكامله في الباب الواحد ـ ولو كان الحديث طويلاً ـ كما هو الحال في المزية الأولى ، حيث يجمع طرقه فيه ، ولا يكرِّر ذلك في أبواب أو كتب مختلفة إلا نادراً .

٣ ـ ومما يمتاز به صحيح مسلم أنه ليس فيه بعد الخطبة إلا الحديث السرد ، ولم يمازجه غير الصحيح من أقوال التابعين وأتباع التابعين ، والنصوص الفقهية ، ولم يتصد لاستنباط الأحكام .

٤ ـ ومما امتاز به صحيح مسلم اعتناؤه بضبط اختلاف لفظ الرواة ، حدثنا فلان وفلان ـ واللفظ لفلان ـ وإذا كان بنيهما اختلاف في حرف من متن الحديث أو صفة الراوي أو نسبه أو نحو ذلك ، فإنه يبينه .

كما يمتاز صحيح مسلم بأنه ثاني مصنف يجمع الحديث الصحيح المجرَّد ، إذ الأول صحيح البخاري[١] .

---

(١) مكانة الصحيحين ص٩٠ ـ ٩٤ باختيار ، وتلخيص .
وهنا يجب التنويه بأن شرح النووي لمسلم يمتاز به من بين الشروح بخصائص ، ومزايا ، ترجع إلى إخلاص الشارح وربانيته واقتداره على الشرح والإيضاح في سهولة ويسر ، منها إحداث الذوق والمناسبة بالحديث النبوي الشريف في نفوس القرَّاء ،وقد جربه الكاتب في عهد الطلب والدراسة الأولى للحديث .
ومن الشروح الأخيرة لصحيح مسلم كتاب « فتح الملهم شرح صحيح =

الإمام أبو داود السجستاني صاحب السنن :

هو الإمام الثبت سيِّد الحفَّاظ سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني صاحب السنن ، ولد سنة اثنتين ومئتين ، سمع خلقاً كثيراً بالحجاز ، والشام ومصر ، والعراق ، والجزيرة ، والثغر ، وخراسان ، حدَّث عنه الترمذي والنسائي وخلق آخرون ، وكتب عنه شيخه أحمد بن حنبل حديث العتيرة ، وأراه كتابه فاستحسنه ، قال محمد بن إسحاق الصاغاني : « ليِّن لأبي داود الحديث كما ليِّن لداود الحديد » ونقل عنه أنه قال : ذكرت في كتابي الصحيح وما يشبهه وما يقاربه ، قال وما كان فيه وهن شديد بينته ، قال الحاكم أبو عبد الله : « أبو داود إمام أهل الحديث في عصره بلا مدافعة » .

مات أبو داوِد في سادس عشر شوال سنة خمس وسبعين ومئتين بالبصرة (٢٧٥هـ)[١] .

وسنن أبي داود من كتب الحديث التي تلقتها الأمة بالقبول ، وتلقاها علماء الصناعة وأئمة الفن بالاعتناء التام وعليه المعول والاعتماد قديماً وحديثاً ، وهو ثالث الأركان أو الرابع في قول بعض المحقِّقين التي قام عليها بناء السنة ، وقال شيخ الإسلام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي شارح صحيح مسلم : « ينبغي للمشتغل وغيره الاعتبار بسنن

= مسلم » للعلامة الشيخ شبير أحمد العثماني الديوبندي ، المتوفى بباكستان سنة ١٣٦٩هـ .

(١) مختصراً من كتاب « تذكرة الحفاظ » ج٢ ص٥٩١ ـ ٥٩٣ .

أبي داود ، أو بمعرفته التامة ، فإن معظم أحاديث الأحكام التي يحتج بها فيه ، مع سهولة تناوله ، وتلخيص أحاديث وبراعة مصنفه ، واعتنائه بتهذيبه » وقال العلامة الحافظ شمس الدين ابن قيم الجوزية ، صاحب « زاد المعاد » :

« صار الكتاب حكماً بين أهل الإسلام ، وفصلاً في موارد النزاع والخصام ، وإليه يتحاكم المنصفون ، وبحكمه يرضى المحققون » إلى آخره .

وقد كثر الاهتمام بشرحه وخدمته والتعليق عليه ، ومن أقدم شروحه وأشهرها وأفضلها مادة ، وأكثرها فوائد وأصولاً ونكتاً « شرح معالم السنن » لأبي سلمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (م٣٨٨هـ) وفيه بحوث منيرة وتفاصيل مفيدة[١] .

---

(١) من شروح سنن أبي داود المتأخرة زمناً ، والمفيدة المنيرة شرحاً ، « عون المعبود شرح سنن أبي داود » للعلامة الشيخ شمس الحق الديانوي في أربعة مجلدات كبار ، المجلد الأول منها قد طبع باسم أخيه محمد أشرف ، وهو ملخص من « غاية المقصود » .
ومن آخر الشروح لسنن أبي داود وأكبرها قيمة وفائدة ، كتاب « بذل المجهود في حل أبي داود » للعلامة المحدِّث الجليل الشيخ خليل أحمد السهارنفوري (م١٣٤٦هـ) وقد ساعده وشاركه في إتمامه ، المحدث الجليل الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي صاحب مؤلفات كثيرة في شرح الحديث ، منها « الكوكب الدري على جامع الترمذي » و« لامع الدراري على جامع البخاري » (كلاهما من أمالي العلامة رشيد أحمد الجنجوهي وعليها تعليقات واسعة ومقدمة ضافية للشيخ العلامة محمد زكريا السهارنفوري) ، و« حجة الوداع وعمرات النبي ﷺ » و« الأبواب والتراجم =

الإمام أبو عيسى الترمذي :

الإمام الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة السلمي الترمذي الضرير ، مصنف الجامع و« كتاب العلل » سمع قتيبة بن سعيد وأبا مصعب وإبراهيم بن عبد الله الهروي وآخرين ، وتفقه في الحديث بالبخاري ، قال ابن حبان في « كتاب الثقات » :

كان أبو عيسى ممن جمع وصنَّف ، وحفظ وذاكر ، قال الحاكم سمعت عمر بن علك ، يقول : مات البخاري فلم يخلف بخراسان مثل أبي عيسى في العلم والحفظ والورع والزهد .

وقال أبو عيسى (الإمام الترمذي) : صنَّفت هذا الكتاب فعرضته على علماء الحجاز والعراق ، وخراسان ، فرضوا به .

وقد سمع من أبي عيسى أبو عبد الله البخاري وغيره ، ومات في ثالث عشر رجب سنة تسع وسبعين ومئتين (٢٧٩هـ) بترمذ[1] .

= للبخاري » وغير ذلك ، المتوفى بالمدينة المنورة ١٤٠٢هـ ، والدفين في البقيع ، وليرجع إلى تقديم الكتاب بقلم العلامة المؤلف وفيه قائمة طويلة لشروح سنن أبي داود وبيان خصائصها .

و « أنوار المحمود شرح سنن أبي داود » للشيخ محمد صديق النجيب آبادي تلميذ العلامة أنور شاه الكشميري .

وشرح للعلامة الشيخ محمود محمد خطاب السبكي المصري (م١٣٥٢هـ) سماه « المنهل العذب المورود شرح سنن الإمام أبي داود » .

(١) والشروح على جامع الترمذي كثيرة من المتأخرة والمعاصرة ، منها « تحفة الأحوذي في شرح الترمذي » للمحدث الجليل الشيخ عبد الرحمن المباركفوري ، (م١٣٥٣هـ) وهو شرح ذو قيمة فنية كبيرة استفاد منه =

ويمتاز الإمام الترمذي بأنه أول من طرق موضوع ما يسميه الناس اليوم بالفقه المقارن ، وكان له فضل كبير يجب أن تعترف الأمة به ، في حفظه لفقه المدارس الاجتهادية في عصره ، ولولاه لضاع منه الشيء الكثير وعفا عليه الزمان ، وتلك خصيصة لجامعه ، تفرد بها من بين مصنفات الحديث والسنة ، فهو من أوثق المراجع وأقدمها في الخلاف ، سيما في معرفة المذاهب المهجورة كمذاهب الأوزاعي والثوري ، وإسحاق بن راهويه ، كان من حسناته أنه حفظ للمتأخرين مذهب الشافعي القديم .

ويكاد يكون كتابه « الجامع » المرجع الأساسي في الأحاديث الحسنة ، وهي ثروة حديثية لا يستهان بقيمتها ولا يستغنى عنها ، ولا نعرف أحداً من المحدثين الكبار ، الذين عليهم العمدة في هذه الصناعة ، اعتنى بهذا الجانب مثل اعتنائه ، حتى قال الإمام أبو عمر عثمان بن الصلاح في كتابه « علوم الحديث »[1] : « كتاب أبي عيسى الترمذي رحمه الله فصل في معرفة الحديث الحسن ، وهو الذي نوَّه

= العلامة المؤلف زمن تدريسه لجامع الترمذي .

و « الكوكب الدري على جامع الترمذي » (١ ـ ٢) جمع الشيخ المحدث محمد يحيى بن محمد إسماعيل الكاندهلوي (م١٣٣٤هـ) والتحقيق والتعليق عليه لابنه العلامة المحدث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي .

وقد جمع بعض تلاميذ العلامة السيد أنور شاه الكشميري شيخ الحديث بدار العلوم ديوبند (م١٣٥٢هـ) بعض إفاداته في درس سنن الترمذي ، وسماه « العرف الشذي » في مجلد ، و« معارف السنن » في مجلدات كبار للعلامة محمد يوسف البنوري .

(١) ص١٤ ـ ١٥ .

باسمه وأكثر من ذكره في جامعه » .

ثم إنه اعتنى اعتناءً خاصاً بعلم الرجال ، وعلم الجرح والتعديل ، وتفرَّد ببعض المسالك في صناعة الأسانيد ، لا يتفطَّن لها ولا يعرف قدرها إلا من رسخت قدمه ، وعلا كعبه في علوم الحديث وصناعته ، هذا عدا فنون كثيرة اشتمل عليها هذا الكتاب[١] .

الإمام ابن ماجه صاحب السنن :

هو الحافظ الكبير المفسر أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني بن ماجه الربعي صاحب السنن والتفسير والتاريخ ، ولد سنة تسع ومئتين ، وسمع محدِّثي عصره الكبار ، وحفاظ الحديث الأجلاء ، قال أبو يعلى الخليلي : ابن ماجه ثقة كبير متفق عليه ، محتجٌّ به ، له معرفة وحفظ ، ارتحل إلى العراقين ، ومكة والشام ومصر ، وفي السنن بعض أحاديث ليست في مستوى أحاديث صحيحة متَّفق عليها كما في كتب الصحاح والسنن الأخرى .

كانت وفاته لثمان بقين من رمضان سنة ثلاث وسبعين ومئتين رحمه الله تعالى ، قال أبو الحسن القطان صاحب ابن ماجه : في السنن ألف

---

(١) ليرجع للتفصيل إلى تقديم « الكوكب الدرِّي على جامع الترمذي » بقلم العلامة المؤلف ، طبع ندوة العلماء لكهنؤ .
وليرجع إلى أسماء شروح جامع الترمذي المؤلفة في الهند ، إلى كتاب « الثقافة الإسلامية في الهند » تأليف العلامة الشيخ عبد الحي الحسني ، طبع مجمع اللغة العربية ، وكتاب « أعلام المحدثين بالهند في القرن الرابع عشر الهجري » للسيد عبد الماجد الغوري ، طبع دار ابن كثير بدمشق .

وخمسمئة باب ، وجملة ما فيها أربعة آلاف حديث[1] .

الإمام النّسائي صاحب السنن :

هو الحافظ الإمام أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر الخراساني القاضي صاحب السنن ، ولد سنة خمس عشرة ومئتين (٢١٥م) وسمع قتيبة بن سعيد وإسحاق بن راهويه ، وهشام بن عمار وأمثالهم بخراسان والعراق والحجاز ومصر والشام والجزيرة ، وبرع في هذا الشأن ، وتفرَّد بالمعرفة والإتقان وعلو الإسناد ، واستوطن مصر .

صنَّف كتاب الخصائص لعلي رضي الله عنه في دمشق ، لأن المنحرفين عنه كثير ، ثم إنه صنَّف بعد ذلك فضائل الصحابة ، يصف مشايخ عصره اجتهاد النسائي في العبادة بالليل والنهار ، وقد خرج إلى الغزو مع أمير مصر ، واستشهد بدمشق من جهة الخوارج ، قال الدارقطني : دفن بمكة بين الصفا والمروة ، وكانت وفاته في شعبان سنة ثلاث وثلاثمئة ، واختلفت الأقوال في محل وفاته[2] .

الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة وصاحب « الموطأ » :

ونتبع تراجم أصحاب الصحاح الستة ، التعريف بأحد الأئمة الأربعة فقيه الأمة وشيخ الإسلام مالك بن أنس بن مالك صاحب كتاب « الموطأ » المتفق على جلالته وكبر شأنه ، وإن كان محله قبل أصحاب الصحاح زمنياً ومدنياً ، ولما خصه الله به من فضل وسوابق وخصائص ،

---

(١) تذكرة الحفَّاظ ، الجزء الثاني مختصراً .
(٢) تذكرة الحفَّاظ للذهبي ج٢ مقتبساً وملخصاً .

وقبول وإكرام ، ولكن نظراً إلى ما تتمتع به الصحاح الستة من رعاية الأمة قبولًا وعنايةً ، وتدريساً وبحثاً وتسميتها بالصحاح ، قدمنا التعريف بها على التعريف بالموطأ وصاحبه الجليل إمام دار الهجرة وفقيه الأمة ، وما كل متأخر في الحديث والتنويه به ، متأخر في المكانة وجلالة القدر[1] .

هو الإمام مالك بن أنس بن مالك ، الفقيه إمام دار الهجرة ، المتفق على قبوله وجلالة شأنه ، قال الشافعي : إذا ذكر العلماء ، فمالك النجم ، وقال : لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز ، وقال الشافعي : ما في الأرض كتاب (في العلم) أكثر صواباً من موطأ مالك ، وقال وهيب : إمام أهل الحديث مالك .

وكان مجلسه مجلس وقار وحلم وعلم ، وكان رجلاً مهيباً نبيلاً ليس في مجلسه شيء من المراء واللغط ، ولا رفع صوت ، وكان الغرباء يسألونه عن الحديث بعد الحديث .

يقول الإمام شمس الدين الذهبي في كتابه « تذكرة الحفاظ » : « قد اتفق لمالك مناقب ما علمتها اجتمعت لغيره ، إحداها : طول العمر وعلوّ الرواية ، وثانيتها : الذهن الثاقب والفهم وسعة العلم ، وثالثتها : اتفاق الأئمة على أنه حجة صحيح الرواية ، ورابعتها : تجمُّعهم على دينه ، وعدالته ، واتباعه السنن ، وخامستها : تقدُّمه في الفقه والفتوى ، وصحة قواعده ، عاش ستاً وثمانين سنة ، أصح الأقوال أنه

---

(١) عند البعض « الموطأ » بدل ابن ماجه في الصحاح الستة .

ولد سنة ثلاث وتسعين ، ومات في سنة تسع وسبعين ومئة[1] .

حدث مالك عن نافع والمقبري ونعيم المجمر والزهري ، وعامر بن عبد الله بن الزبير ، وابن المنكدر ، وعبد الله بن دينار ، وخلق كثير ، وحدث عنه أمم لا يكادون يحصون وطبق مذهبه شمال إفريقية من السودان وليبيا ، والجزائر إلى المغرب الأقصى (مراكش وما تبعها) والأندلس (الإسلامي القديم)[2] .

وكتاب الموطأ من روايتين لعَلَمين من أعلام تلاميذ الإمام مالك ، أولاهما برواية يحيى الأندلسي الليثي المصمودي ، وهو المتبادر إلى الذهن بالموطأ عند الإطلاق ، وأكب عليه العلماء في القديم والحديث .

وثانيتهما برواية الإمام محمد بن الحسن الشيباني (تلميذ الإمام أبي حنيفة) وعند بعض علماء هذا الفن ، له ترجيح على « الموطأ » برواية يحيى ، وتفضيل عليه لوجوه[3] .

---

(١) مختصراً من كتاب « تذكرة الحفَّاظ » الجزء الأول ص٢٠٧ ـ ٢١٣ طبع دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد .

(٢) وللموطأ شرحان للإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي (١١١٤ ـ ١١٧٦هـ) أولهما « المسوى » بالعربية ، وثانيهما « المصفى » بالفارسية .

(٣) قام العلامة النابغة عبد الحي بن عبد الحليم الأنصاري اللكهنوي (١٢٦٤ ـ ١٣٠٤هـ) بتعليق مشحون بفوائد علمية ، ومقارنات فقهية استدلالية ، سماه « التعليق الممجَّد على موطأ محمد » ونشر الكتاب في ثلاثة مجلدات بتعليق وتحقيق للدكتور تقي الدين الندوي ، مع تقدمة بقلم الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، وتقديم العلامة المؤلف ـ رحمه الله ـ من دار القلم بدمشق في =

ومن الشروح المتأخرة « أوجز المسالك إلى موطأ مالك » للمحدث الجليل العلامة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ، مع مقدمتين للكتاب بقلم كاتب هذه السطور ، والعلامة محمد يوسف البنوري وقد جاء فيه من علم جم ، ومادة غزيرة ، ومعلومات مفيدة ما تشتت في بطون الأسفار ، وكتب التاريخ والأخبار ، حتى أصبح بذلك موسوعة صغيرة فيما يتصل بكتاب الموطأ ومؤلفه العظيم ، هذا إلى ما جاء فيه مما يختص بالهند ، وأخبار كبار الأساتذة والمحدثين فيها ، وشيوخ المؤلف وما جاء فيها من أصول وقواعد ، ودرر وفرائد(١) .

مجاميع أخرى للحديث :

وهناك مجاميع أخرى للحديث النبوي الشريف ، تُلقيت بالقبول ، واستفاد منها العلماء ، واستعانوا بها في إثبات مذاهبهم ، واتجاهاتهم ، ككتاب الآثار للإمام أبي حنيفة ومسند الإمام أحمد بن حنبل ، ومسند أبي داود الطيالسي ، وشرح معاني الآثار للإمام الطحاوي ، ومعاجم الإمام سليمان بن أحمد الطبراني ، وسنن الدارقطني ، وصحيح محمد بن حبان البستي ، الذي ظهر في ثمانية عشر جزءاً مطبوعاً ، وابن خزيمة ، وكتاب المصابيح لمحيي السنة ، قامع البدعة أبي محمد الحسين بن مسعود الفرَّاء البغوي .

= ثلاثة مجلدات كبار ، و« التعليق الممجد » فيه فوائد علمية ودراسة جمة ، ذات قيمة للدارسين والمدرِّسين .

(١) ملتقط من تقديم لمقدمة « أوجز المسالك إلى موطأ مالك » للعلامة المحدث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ، بقلم العلامة المؤلف .

وتلحق بهذه القائمة الكريمة ذات القيمة ، والتي حظيت بالقبول والاختيار للتدريس والشرح (مشكاة المصابيح) للشيخ ولي الدين محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي المتوفى بعد ٧٣٧هـ[١] ، وقد دخلت في قائمة المناهج الدراسية ، والشرح والإيضاح في شبه القارة الهندية بصفة خاصة ، يرجع إلى التعرف بها ومعرفة مكانتها إلى كتب ألفت في تاريخ تدوين الحديث وكتب التراجم والموسوعات العلمية[٢] .

فنون وعلوم وضعت لخدمة الحديث وصيانته ، وللإفادة منه :

وقد ألهم الله لصيانة حديث نبيه ﷺ والذبِّ عنه من التشكيك فيه ، علوماً ومقدمات ، ومجالات جهود لا يلهم العناية بها وبذل الجهد فيها إلا لما يحب بقاءه والذب عنه ، وتيسير الانتفاع به .

منها : علم مصطلح الحديث :

ومن ثمار هذه الحركة المباركه أن دونت القواعد التي وضعها

---

(١) وللمشكاة شرح للإمام شرف الدين حسين بن محمد عبد الله الطيبي (م٧٤٢هـ) في ١١ مجلداً و« مرقاة المفاتيح » للإمام ملا علي القاري .

(٢) ويحسن هنا التنويه بشرح كبير ذي أجزاء عديدة ، لم يتم بعد ، اسمه « مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح » للعلامة أبي الحسن عبيد الله بن العلامة محمد عبد السلام المباركفوري وقد انتهى إلى عشرة أجزاء ، يشتغل بإتمامه ابنه الفاضل الشيخ عبد الرحمن بن عبيد الله .
ويحسن هنا التنويه بكتاب « إعلاء السنن » كتاب جدير بأن يسمى موسوعة في علم الحديث للشيخ ظفر أحمد التهانوي العثماني في ٢١ مجلداً .

العلماء أثناء حركتهم لمقاومة الوضع ، والتي قسموا فيها الحديث إلى ثلاثة أقسام ، وبذلك تكوَّن علم مصطلح الحديث الذي يضع القواعد العلمية لتصحيح الأخبار ، وهي أصح ما عرف في التاريخ من قواعد علميَّة للرواية والأخبار .

وعلم مصطلح الحديث يبحث عن تقسيم الخبر إلى صحيح وحسن وضعيف ، وتقسيم كل من هذه إلى أنواع وبيان الشروط المطلوبة في الراوي والمروي ، وما يدخل الأخبار من علل واضطراب وشذوذ ، وما تردُّ به الأخبار ، وما يتوقف فيها إلى أن تعضد بمقوِّيات أخرى ، وبيان كيفية سماع الحديث وتحمُّله وضبطه ، وآداب المحدث ، وطالب الحديث ، وغير ذلك مما كان في الأصل بحوثاً متفرقةً ، وقواعد قائمة في نفوس العلماء ، في القرون الثلاثة الأولى ، إلى أن أفرد بالتأليف والجمع والترتيب ، شأن العلوم الإسلامية الأخرى ، في تطوُّرها وتدرُّجها[١] .

ومن كتب مصطلح الحديث التي استفيد منها في دراسة مبادىء هذا الفن ، وأدخلت في قائمة المناهج الدراسية في شبه القارة الهندية ، كتاب « نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر » وشرحه « نزهة النظر » كلاهما للإمام المحدث الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (م٨٥٢هـ) .

---

(١) ملتقط من كتاب « السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي » ص١٠٧ ـ ١٠٨ ، وتستعرض أسماء الكتب المهمة من هذا الفصل في هذا الكتاب ص١٠٨ ـ ١٠٩

علم الجرح والتعديل :

ومن ثمار هذه الجهود المباركة علم الجرح والتعديل أو علم ميزان الرجال ، وهو علم يبحث فيه عن أحوال الرواة وأمانتهم ، وثقتهم وعدالتهم ، وضبطهم ، أو عكس ذلك من كذب أو غفلة أو نسيان ، وهو علم جليل من أجل العلوم التي نشأت عن تلك الحركة المباركة ، لا نعرف له مثيلاً أيضاً في تاريخ الأمم الأخرى ، وقد أدى إلى نشأة هذا العلم حرص العلماء على الوقوف على أحوال الرواة ، حتى يميزوا بين الصحيح من غيره ، فكانوا يختبرون بأنفسهم من يعاصرونهم من الرواة ، ويسألون عن السابقين ممن لم يعاصروهم ، ويعلنون رأيهم فيهم دون تحرُّج ولا تأثُّم ، إذ كان ذلك ذباً عن دين الله وسنة رسوله صلَّى الله عليه وآله وسلم(١) .

فن أسماء الرجال :

ولم يقتصر هؤلاء المخلصون على جمع الحديث وتدوينه وعلم مصطلح الحديث وعلم الجرح والتعديل ، بل تعدت عنايتهم إلى الوسائط التي قد وقعت في رواية الحديث ، وهم الرواة الذين رووا هذه الأحاديث ، فعنوا بمعرفتهم ومعرفة أسمائهم ، وأسماء آبائهم ، وحوادث حياتهم وأخلاقهم ، ومكانتهم في الأمانة والصدق والحفظ ، وهكذا أصبح الذين اتصلوا بالشخصية الكريمة التي وعد الله لها بالخلود وبقاء الذكر ، وانتشار الاسم ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ أصبح الذين اتصلوا

---

(١) ملتقط من كتاب « السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي » ص١٠٩ ـ ١١٠ ، واقرأ أسماء أئمة هذا الشأن ، وأسماء كتبهم في نفس البحث .

بها موضوع الدارسين والباحثين ، وخرجوا من زوايا الخمول ، واستحقوا الحياة والاجتهاد ، وأصابهم فيض من حياة هذه الشخصية الخالدة ، وحيوا وظهروا ، واحتفظ التاريخ بأسمائهم وأحوالهم ، ورآه حقاً على نفسه .

وهكذا ظهر علم أسماء الرجال إلى عالم الوجود ، وكان من مفاخر هذه الأمة التي لا يشاركها فيها أمة من الأمم ، قال الدكتور أسبرنجر (SPRE NGER) في مقدمته الإنجليزية على كتاب (الإصابة في أحوال الصحابة) للحافظ ابن حجر العسقلاني ما ترجمته :

« لم تعرف أمة في التاريخ ، ولا توجد الآن على ظهر الأرض ، وُفِّقت لاختراع فن مثل فن أسماء الرجال ، الذي نستطيع بفضله أن نقف على ترجمة خمسمئة ألف (نصف مليون) من الرجال »[1] .

ولم يعن المحدثون بتعريف رجال الحديث فحسب ، بل التزموا الصدق والصراحة في تعريفهم ، وجمعوا كل ما يتصل بأخلاقهم وعاداتهم ، وما يدلُّ على قوتهم وضعفهم ، واحتياطهم وتساهلهم ، وتقواهم ، وعلمهم ، وذاكرتهم ، وجمعوا كلَّ ما قاله معاصروهم فيهم ، ولم يداروا ولم يجاملوا في ذلك ، ولم يهابوا أحداً ، ولو كان بعضهم أميراً مهاباً، أو شيخاً وقوراً ، وقد روى التاريخ في ذلك طرائف تدل على شهادة هؤلاء الناقدين بالحق وتدقيقهم وعملهم بقوله تعالى :

---

(١) « الإصابة في أحوال الصحابة » طبع كلكته (١٨٥٣ ـ ١٨٦٤م) ، واقرأ التزامات علماء أسماء الرجال والمؤلفين في الموضوع ص٨٢ ـ ٨٣ من كتاب « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » للعلامة المؤلف ج١ ، طبع دار ابن كثير ، دمشق .

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ ﴾[1] [النساء : ١٣٥] .

الفقه المقارن ، ومحاكمه المذاهب والاجتهادات في ضوء الكتاب والسنة :

وقد اقتضى الاختلاف الفقهي ، وتشعُّب الآراء والاجتهادات ، أن يقارن بين المذاهب الفقهية والآراء الاجتهادية في ضوء الكتاب والسنة بصفة عامة ، وفي ضوء الأحاديث الثابتة ، والقوية والضعيفة بصفة خاصة ، وترجيح مذهب على مذهب ، واجتهاد على اجتهاد .

وقد قام بذلك علماء مذاهب مختلفة ـ كالحنفي والمالكي ، والشافعي والحنبلي ، وأصحاب الاختصاص في الحديث ـ كتباً في موضوع « الفقه المقارن » والمحاكمة بين الاجتهادات والمذاهب الفقهية ، تجلَّت فيها سعة نظرهم ، وواسع اطلاعهم واستعراضهم الأمين ، لا يبرأ ذلك من انحياز أو تمايل إلى مذهب خاص ، قد يأتي من غير قصد وشعور ، ولا يبرأ من ذلك عمل إنساني في أي مجال من مجالات العلم والبحث ، والمقارنة والتحقيق ، ولكن هذه الكتب ـ في موضوع الفقه المقارن ، وسرد دلائل المذاهب ومصادرها ـ لا تخلو من

---

(١) يرجع في دراسة فن أسماء الرجال ، والجرح والتعديل إلى « مقدمة ابن الصلاح » و« تدريب الراوي » و« فتح المغيث » وفي تراجم المحدثين والرواة « تذكرة الحفَّاظ » و« سير أعلام النبلاء » للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (م٧٤٨هـ) في ٢٥ مجلداً وغيرها من الكتب .

فوائد علمية ، ومواد دراسية وتحقيقية[1] .

معاجم فن الحديث :

وقد وضع العلماء في عصور مختلفة معاجم للكلمات التي وردت في متون الحديث ، وقد عنوا بشرحها وإيضاحها في شروح كتب الحديث كالعلامة العيني في « عمدة القاري في شرح صحيح البخاري » والنووي في شرح صحيح مسلم ، وغيرهما من شروح الصحاح ودواوين الحديث .

ولكن الذي امتاز في هذا المجال اللازم والحاسم في فهم الحديث وتطبيقه علمياً وعملياً ، هو العلامة محمد طاهر الفتني الهندي الكجراتي ، المتوفى ٩٨٦هـ في كتابه الفريد في هذا الموضوع الذي يدين له ويحتاج إليه . ويستفيد منه كل معلم للحديث ودواوين السنة[2] فضلاً عن الطالب والدارس ، المسمى (بمجمع بحار الأنوار ، في

---

(١) من نماذج البحث والمقارنة في هذا الموضوع « فتاوى شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية » وكان يستحق أن يسمى « موسوعة شيخ الإسلام ابن تيمية » بدلًا من فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية وهذا من غير أن يكلِّف المستفيد من هذا الكتاب الجليل اتباع كل ما جاء فيه من مذاهب وترجيحات وإثباتات .
وخير كتاب ومصدر للدراسة والاستفادة في الفقه المقارن للطالب المتوسط كتاب « نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار » للعلامة محمد بن علي الشوكاني (م١٢٥٥هـ) في ثمانية أجزاء (١ ـ ٨) .
من أهم خصائصه استنباط أحكام الفقه من الحديث وكيفية دلالتها عليها ، وأقوال مذاهب علماء الأمصار فيها مع بيان مذاهب علماء الصحابة والتابعين ، وحجة كل مع بيان راجحية الحكم في ذلك .

(٢) طبع بمطبعة دائرة المعارف العثمانية سنة ١٣٩٥هـ في خمسة مجلدات .

غرائب التنزيل ولطائف الأخبار) في خمسة أجزاء .

وكفى شهادة لذلك ما قاله المؤرخ الكبير والمحدث والناقد الممتاز العلامة السيد عبد الحي الحسني رحمه الله ، المتوفى ١٣٤١هـ في كتابه في أعلام الهند وشخصياتها المرموقة ، المسمى بـ « نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر »[١] الذي هو في ثمانية أجزاء ، في ترجمة العلامة محمد طاهر الفتني في الجزء الرابع من الكتاب ما نصه :

« جمع فيه كل غريب الحديث وما ألف فيه ، وجاء كالشرح للصحاح الستة ، وهو كتاب متفق على قبوله بين أهل العلم ، منذ ظهر في الوجود ، وله منة عظيمة لذلك العمل على أهل العلم »[٢] .

حاجة هذا العصر أشد إلى الاحتفاظ بالحديث والسنة من العصور الماضية والباعث الجديد على إنكار الحديث والسنة :

لقد ذكرنا في شرح وتفصيل أن الحديث ميزان عادل لوزن حياة المسلمين وواقعهم ، والحكم عليه في كل عصر ، وإن الحديث وسيلة

---

(١) صدرت لهذا الكتاب طبعتان من دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ، الهند ، وصدرت الطبعة الثالثة باسم « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » من مطبعة ندوة العلماء . وقد صدرت له الطبعة الرابعة مصححة ومنقحة من « دار ابن حزم » بيروت ، عام ١٩٩٩م ، وهي تحتوي على ثلاث مجلدات ضخمة .

(٢) (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر) أو (الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام) ج٤ .
ولا يغض النظر في هذا الموضوع عن « النهاية في غريب الحديث والأثر » لابن الأثير الجزري في خمسة مجلدات .

قوية للحسبة على المجتمع الإسلامي ، ومدرسة دائمة يتخرَّج فيها المصلحون والمجدِّدون ، وذكرنا شهادة التاريخ لتأثير الحديث ، وكتب السنة في الإصلاح والتجديد[1] .

وقد ظهر أخيراً أن الدعاة إلى تقليد الحضارة الغربية (أحياناً جزئياً وأحياناً كثيرة كلياً) قد عرفوا بفطنتهم وتجاربهم العملية أن الحديث أكبر عائق في سبيلهم ، وهو الذي يتعارض مع أهوائهم ودعواتهم ، ومناهج حياتهم ، وهو الذي يحبط مساعيهم أو يخلق لها مشاكل وعوائق وتحدِّيات ومعارضات ، فاستهدفوه ، واعتبروه أكبر منافس وهدف ، في تحقيق أغراضهم وهدفهم لنقل الجيل الإسلامي المعاصر من حضارة إلى حضارة ، ومنهج الحياة القائمة على التعاليم الإسلامية ، والآداب النبوية السنية ، وأسوة الرسول ، التي حث عليها القرآن ودعا إليها بصراحة بقول الله تعالى :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

وقوله :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

وقد ثبتت بالحديث والسنة آداب وتعليمات ، وأساليب للحياة والعشرة ، ومنكرات ذمها رسول الله ﷺ وأنكر عليها ، واعتبرها من

---

(١) ليرجع في ذلك إلى رسالة العلامة المؤلف « دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته » طبع المجمع الإسلامي العلمي ، ندوة العلماء ، لكهنؤ ـ الهند .

شعائر الجاهلية ، أو تقليداً للأمم غير الإسلامية ، فاستهدفوا الحديث والسنة بصورة خاصة ، وعارضوها معارضة قوية ، وحاولوا أن يشككوا فيها ويصرفوا عنها ، وكانوا في ذلك ـ مع استنكارهم والبراءة منهم ـ أذكياء شاطرين ، عارفين بنفسية هذه الأمة ، وكيف يستطيعون أن يوجهوها من الاتباع والتقيُّد ، والعمل بالشريعة الإسلامية ، والحياة على منهج حياة الرسول والصحابة ، إلى الحرية والانطلاق ، وتحقيق الشهوات والرغبات ، وتقليد الحضارة الغربية ، والرغبات النفسية في حرية تامة .

وهنا ننقل ما جاء في آخر رسالتنا « دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته »[1] :

دافع جديد إلى إنكار الحديث والسنة :

وقد علل العالم الغربي المهتدي محمد أسد (ليوبولد ويس سابقاً) التنصل من السنة ونزعة إنكار الحديث ـ التي ظهرت طلائعها في الفترة الأخيرة ـ في ضوء معرفته لنفسية الجيل الجديد ، وقوة سيطرة الحضارة الغربية ، بصعوبة التطبيق بين موازين الحضارة الغربية وقيمها وأساليب حياتها و« موضاتها » وبين السنة والجمع بين الحياة التي تقوم على الحب العميق ، والثقة التامة بصاحب الرسالة الإسلامية ، ومصدر السنة

---

(١) أعدت هذه الرسالة لتقرأ في موسم المحاضرات لرابطة العالم الإسلامي في عام ١٤٠١هـ ، وقد ألقيت في ليلة الثلاثاء من ذي القعدة الحرام سنة ١٤٠١هـ (١٣ من سبتمبر ١٩٨١م) في قاعة المحاضرات بمكة المكرمة ، وقد حضرها عدد وجيه من العلماء والأساتذة والمثقفين وأعيان الحجاج .

النبوية ـ عليه الصلاة والسلام ـ وبين تقديس الحضارة الغربية والنظر إليها كآخر ما وصل إليه العلم الإنساني ، ولعل هذا هو السبب الذي يحث بعض القادة السياسيين والحكام ، في بعض الشعوب الإسلامية والأقطار العربية ، على الهجوم على السنة وإنكار الحديث ، يقول محمد أسد :

« وفي هذه الأيام التي زاد فيها نفوذ المدنية الغربية في البلاد الإسلامية نجد سبباً جديداً يضاف إلى الموقف المستغرب الذي يقفه من نسميهم « متنوري المسلمين » من هذه القضية ، ذلك هو قولهم أنه من المستحيل أن نعيش على سنة النبي ﷺ ، وأن نتبع الطريقة الغربية في الحياة في آن واحد ، ثم إن الجيل المسلم الحاضر مستعد لأن يكبر كل شيء غربي ، وأن يتعبَّد لكل مدنية أجنبية ، لأنها أجنبية ، ولأنها قوية وبراقة من الناحية المادية ، هذا التفرنج كان أقوى الأسباب التي جعلت أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام ، وجعلت جميع نظام السنة معها لا تجد قبولاً في يومنا هذا ، إن السنة تعارض الآراء الأساسية التي تقوم عليها المدنية الغربية معارضة صريحة ، حتى إن أولئك الذين خلبتهم الثانية (المدنية الغربية) لا يجدون مخرجاً من مأزقهم هذا إلا برفض السنة ، على أنها غير واجبة الاتباع على المسلمين ، ذلك لأنها قائمة على أحاديث لا يوثق بها ، وبعد هذه المحاكمة الوجيزة يصبح تحريف تعاليم القرآن الكريم ، لكي تظهر موافقة روح المدنية الغربية أكثر سهولة »[١] .

---

(١) « الإسلام على مفترق الطرق » ص/ ٩٥ ـ ٩٦ ترجمة الدكتور عمر فروخ ، طبع دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٥١م .

التشكيك في حجية الحديث وإنكار السنة مؤامرة على الإسلام ، ستبوء بالخيبة والإخفاق :

والذين يحاولون أن يحرموا الأمة هذا المنبع الفياض للحياة والهداية والقوة ، بإثارة الشك والارتياب في حجية الحديث وقيمته ، وزحزحة ثقتها به ، إنهم لا يدرون مدى الضرر والخسارة التي يلحقونها بها ، إنهم لا يدرون أنهم يكونون بذلك قد جعلوا أمتهم « محرومة الإرث » « محذوفة الصدر » « مقطوعة الأصل » حائرة تائهة ، كما صنع أعداء اليهودية والمسيحية ، أو حدثان الدهر معهما ، فلو أنهما يصنعون ذلك عن شعور ووعي ، لما كان لهذه الأمة ودينها عدو ألدّ منهم وأحنق ، لأنه لا تعود إذاً هناك وسيلة إلى إنشاء هذا الذوق الديني من جديد ، الذوق الذي كان يمتاز به الصحابة رضي الله عنهم والذي لا يمكن أن يوجد إلا بصحبة النبي ﷺ مباشرة ، أو بواسطة الحديث الذي هو صورة حية لذلك العهد ، ومذكرة ناطقة للحياة النبوية تزخر بكيفيات العهد النبوي ، وتتعطر بأريجه وتفوح برياه .

وقد أحسن الأستاذ محمد أسد في كتابه القيم « الإسلام على مفترق الطرق » تشخيص هذا العداء للإسلام ومدى خطر هذه المؤامرة التي تحاول تجريد المجتمع الإسلامي من هذه القوة التي لا عوض عنها ، وهذه الثروة التي لا مثيل لها ، فيقول :

« لقد كانت السنة الهيكل الحديدي الذي قام عليه صرح الإسلام ، وإنك إذا أزلت هيكل بناء ما أفيدهشك بعدئذ أن يقوض ذلك البناء ، كأنه بيت من ورق »[1] .

---

(١) « الإسلام على مفترق الطرق » ص/ ٨٥ .

ويتحدث عن تأثير إنكار الحديث وضرورة اتباع السنة، فيذكر نتيجة ذلك ويقول:

« ولكن تلك المنزلة الممتازة التي للإسلام - على أنه نظام خلقي وعملي، ونظام شخصي واجتماعي - تنتهي بهذه الطريقة (يعني بإنكار الحديث وضرورة اتباع السنة) إلى التهافت والاندثار »[1].

وبالرغم من هذه المحاولات الطائشة للتشكيك في حجية الحديث والدعوة إلى إنكار السنة التي ظهرت على مستويات مختلفة وبدوافع متنوعة، عقائدية، وسياسية، وشخصية، وللهروب من مسؤولية العمل بالأحكام الشرعية، والالتزام الديني، في فترات مختلفة[2] لم يزل شعار السنة عالياً، والدعوة إليها قائمة، وقد عجنت بها طينة المجتمع الإسلامي، وتغلغلت في أحشائه، وجرت منه مجرى الروح والدم، حتى أصبح من المستحيل تجريده منها، وإقامة مجتمع جديد على مجرد الدعوة إلى القرآن الذي اقترن بعمل الرسول ﷺ وشرحه له، وتفصيل ما جاء فيه مجملاً ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤].

ولا يزال الحديث النبوي الشريف معتنى به، دراسة وتفهماً وتحقيقاً ونشراً لمصادره التي لم ترَ ضَوْءَ الشمس بعد، ولا تزال الحسبة

---

(١) نفس المصدر ص/ ٩٥.

(٢) ليراجع للتفصيل الباب الثاني من كتاب « السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي » في الشبه الواردة على السنة في مختلف العصور ص/ ١٤٣ إلى ١٥٣.

قائمة على المجتمع الإسلامي والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والرد على البدع والمحدثات على قدم وساق ، بما في ذلك من تقليد الحضارة الغربية التقليد الأعمى ، والردة العقائدية والفكرية والحضارية ، وقبول المدنية الغربية برمتها وبحذافيرها ، وعلى علاتها ، ومخالفاتها للحياة الإسلامية ، بفضل الاحتكام إلى السنة والرجوع إلى الحديث تحقيقاً لما أخبر به النبي ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي قوامة على أمر الله لا يضرها من خالفها »(١) وفي حديث آخر : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة »(٢) .

إن شأن المشككين في حجّية الحديث ، والحاملين للواء إنكار السنة ، مع الحديث النبوي والسنة المطهرة ، كما حكاه الشاعر العربي القديم :

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها ، وأوهى قرنه الوعل

* * *

(١) رواه ابن ماجه .

(٢) رواه الحاكم .

بعض توجيهات ، وتجارب دراسية

لقد سنح للمؤلف ـ مع اعتراف بالقصور وقلة البضاعة في دراسة علم الحديث الواسع الجامع ـ وألقى في روعه ـ في ضوء حياته المدرسية واتصالاته بالأوساط العلمية والفكرية ، والتأليفية ـ أن يعرض في آخر هذه الرسالة الوجيزة ، بعض توجيهاته المخلصة ، ولفتاته الهادفة ، إلى قراء هذه الرسالة الوجيزة المتواضعة ، في المدارس الدينية ، والحلقات العملية ، والتحقيقة ، مع اعتذار ومعرفة بضآلة الشخصية وقلة البضاعة العلمية .

١ ـ أول ما يجب الاهتمام به والحرص عليه ، هو تصحيح النية ، والإخلاص ، والاحتساب ، في دراسة كتب الحديث ، والبحث عن السنة ، وقد قرن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعض الواجبات الدينية ، والأعمال التي لا يقوم بها الإنسان إلا امتثالاً لأمر الله ، وابتغاءً لوجه الله ، بالإيمان والاحتساب ، إذ يتطرق إلى ذلك ـ بحكم البيئة والعادة ومحاسبة الناس ـ الحرص على موافقة الناس والبيئة ، والتحرُّز من التعرُّض للنقد والملام ، فيقوم بهذه الفريضة الدينية مسايرة للناس والبيئة ، أو خشية من النقد والملام ، والإشارة إليه بالبنان ، فقيَّد تلك الواجبات الدينية ، أو العبادات الشخصية ، باستحضار نية الثواب ، ورضا الله تبارك وتعالى ، والتقرب إليه ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولا يقوله إلا نبي ملهم من الله ، عارف بمواضع الضعف في البشر ، وتطرُّق الأهواء ، ونزغات الشياطين إلى النفوس : « من صام

رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه »[1] وقال : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه »[2] فإذا كان من الممكن أن يخشى على الإنسان أن يصوم رمضان ، أو يقوم ليلة القدر - وفيها مشقة ومجاهدة ، وما شرعا إلا للتقرب إلى الله وابتغاء رضوانه - أن يتجرد ذلك عن الإيمان والاحتساب ، فكيف بالأعمال والجهود التي تتنوع أهدافها وفوائدها ، ولذلك تحتاج هذه الأعمال والانشغالات والجهود إلى عناية خاصة واهتمام بالغ باستحضار نية الثواب والأجر من الله ، وعزم الانتفاع به شخصياً وجماعياً ، والعزم على تبليغه ونشره ، ومحاسبة المجتمع في ضوئه ، والعمل بقوله ﷺ : « نضر الله امرأً سمع منا شيئاً فبلَّغه كما سمعه فربَّ مبلَّغ أوعى من سامع »[3] .

وقد كان الإمام البخاري رحمه الله حكيماً وموفقاً ، في بدء كتابه « الجامع الصحيح » بحديث : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[4] .

وقد حقق الإمام بهذا البدء الشريف الحكيم غرضين ، أولهما : الإشارة إلى أن جمعه للأحاديث الصحاح وتأليفه لهذا الكتاب ، إنما كان ابتغاء رضوان الله ، ورجاء ثوابه ، وتبليغ كلام الرسول عليه الصلاة

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الصوم باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً .
(٢) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الصوم باب فضل ليلة القدر .
(٣) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح .
(٤) الجامع الصحيح للبخاري ، كتاب الإيمان .

والسلام (بأصح ما ثبت وروي) إلى القراء عامة ، والعلماء والمشتغلين بعلم الحديث خاصة ، والغرض الثاني : حث الدارسين على تصحيح النية وابتغاء رضوان الله ، وكانت خير فاتحة ومقدمة لكتاب يؤلف في الحديث[1] .

فالمطلوب والمرجو أولًا من طلبة علم الحديث وقراء مجاميعه أن يصححوا نيتهم ، وأن يكونوا مخلِصين محتسبين ، متقرِّبين إلى الله ، راجين ثوابه وتوفيقه ، متجرِّدين عن طلب الدنيا وتحقيق غرض من الأغراض المادية ـ كنيل الجاه والشهرة ، والتميز والافتخار ، والاكتساب ـ وإن تحقق شيء من ذلك من غير قصد ونية .

٢ ـ ويقترن بالإيمان والاحتساب ، ومعرفة قيمة الحديث النبوي ومكانته ، الأدب اللائق به ، والتواضع وحمد الله تعالى على هذا التوفيق والسعادة ، وقد رويت في ذلك حكايات عن المعلمين ، وملقي الدروس في هذا المَوضوع الجليل والتلاميذ العارفين بشرفه ، الشاكرين على توفيق الله تعالى لهم ، من المحافظة على الوضوء ، والتأدب والإنصاف ، وقد رويت عمن خالف هذا الشأن ، وتناول الحديث أو كتب الحديث بالإهانة وسوء الأدب ، والنقد اللاذع ، روايات مخيفة مرعدة ، من التورط في الإلحاد ، أو التعرض لسخط الله تعالى ، أعاذ الله جميع المسلمين ، والطالبين للدين من هذه العاقبة الوخيمة ، والعقوبة الذميمة .

---

(١) وفي ذلك جواب وإقناع لمن انتقد الإمام البخاري في عدم بدء كتابه بمقدمة فيها حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ، وإبداء الغرض وتحديد موضوع الكتاب ، إذ كان ذلك خير مقدمة وخطبة للكتاب .

٣ ـ لقد تحقق وثبت من القرآن الكريم أنه كان من مقاصد البعثة الكريمة الرئيسية الأصيلة ، تعليم الكتاب والحكمة والتزكية ، وقد جاء في القرآن الكريم :

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٥١] .

وقال :

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران : ١٦٤] .

وقال :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] .

فكانت تزكية النفوس من المقاصد الرئيسية التي كانت لها البعثة ، ومن المظاهر الكبرى التي تجلَّت فيها معجزة النبوة المحمدية ، والشريعة الإسلامية ، والأسوة النبوية ، وهي مهمة تهذيب الأخلاق ، والتحلي بالفضائل ، والتجنب عن الرذائل والذمائم ، وكون المسلم المتخرج في هذه المدرسة النبوية التربوية مثلاً كاملاً ، وأسوة مرموقة في السمو الخلقي ، والسلوك الإنساني ، مقتبساً في كل ذلك عن مشكاة النبوة ، والتعليمات النبوية ، مصدقاً لقوله تعالى :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ

﴿ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

وقد أطلق الله لفظ الحكمة على هذه الأخلاق والآداب في عدة مواضع[١] .

وقد تجلَّت أهمية هذه المهمة (تزكية النفوس وتهذيب الأخلاق) في قوله ﷺ « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[٢] فقد كان خير مثال له ، وأفضل أسوة فيه ، فقد قال القرآن ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

فتجب العناية الخاصة بالاستفادة من كتب الحديث ودواوين السنَّة في هذا الجانب (تزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، واتباع الأسوة النبوية ، والتعليمات والآداب التي جاءت في كتب الحديث ودواوين السنة) والحرص والجهد لكون طالب الحديث ـ فضلاً عن معلمه ، والمؤلف والمحقق في موضوعه ـ أسوة للناس في الأخلاق والمعاملات والسلوك ، والعشرة ، مثبتاً ومبرهناً على تأثير علم الحديث ، والاشتغال بالسنة ، والسيرة في حياته وسلوكه ، ومعاملاته ومظاهره ، فيكون ذلك محرضاً للناس (خصوصاً في بلد الأكثرية فيه لغير المسلمين ، أو بلد ومجتمع تسود فيه الحضارة الغربية) على التأمل في أسباب هذه الميزة والاتسام ، ودراسة الإسلام ، والسيرة النبوية ،

---

(١) راجع سورة لقمان الآية ١٢ .

(٢) رواه مالك في « الموطأ » بلاغاً عن النبي ﷺ ، وقال ابن عبد البر : هو متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره ، وقد رواه الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، بلفظ « إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق » .

فتكون خير دعوة ، وأقوى استلفات من غير دعاية وإشاعة .

ويحسن تحقيق هذا الغرض ويساعد عليه ، العناية بدراسة الكتب الصحيحة المأثورة التي عني فيها بهذا الموضوع بصفة خاصة .

من أهمها : كتاب « الأدب المفرد » لأمير المؤمنين في الحديث الإمام محمد بن إسماعيل البخاري ، صاحب الجامع الصحيح ، والثاني : كتاب « الترغيب والترهيب » للحافظ الكبير زكي الدين عبد العظيم أبي محمد المنذري الدمشقي (٥٨١ ـ ٦٥٦هـ) .

والثالث « رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين » للإمم الحافظ الفقيه أبي زكريا محيي الدين يحيى النووي ، (٦٣١ ـ ٦٧٦هـ) شارح صحيح مسلم[١] .

وأخيراً لا آخراً يحترز بقدر الإمكان عن الهجوم بعنف وقسوة على مذهب من المذاهب الفقهية ، المعمول به من قديم الزمان ، والمؤسس على استخراج الأحكام واستنباط الآراء والقضايا من الكتاب والسنة ـ على اختلاف في الاجتهاد والمعايير ـ بحسن النية والإخلاص ، والورع والتقوى ، وإجلال الكتاب والسنة ، وإحلالهما المحل الأول ، وما كتب الله له من الشيوع والانتشار ، والقبول والإقبال ، فيكون ذلك جهاداً في غير جهاد ، ونضالًا في غير عدو[٢] .

---

(١) يلحق بهذه القائمة ـ مع اعتذار وتواضع ـ كتاب « تهذيب الأخلاق » لوالد العلامة المؤلف العلامة عبد الحي بن فخر الدين الحسني رحمه الله (م١٣٤١هـ) طبع دار ابن كثير بدمشق ، ودار العلوم ندوة العلماء ، وهو مقرر في المنهج الدراسي في دار العلوم التابعة لندوة العلماء .

(٢) يرجع في ذلك إلى مطالعة كتاب « الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف » =

وبدلًا من ذلك تركز كل عناية وكل ما أنعم الله به من دراسة للكتاب والسنة ، والاستدلال بالقرآن والحديث ، وكل ما أنعم الله به من قدرة بيانية ، ومقدرة خطابية ، واستدلالية ، على الرد على أنواع الشرك والبدع ومظاهرهما الفاشية بصفة خاصة في بلاد دخل فيها الإسلام عن طريق الفاتحين العجم ، المغمورة بأكثرية غير إسلامية ، خاضعة لتقاليدها وعقائدها وعاداتها ، والتي طالت الفترة فيها ـ أحياناً كثيرة ـ على دراسة الحديث الشريف ، وإشاعته ونشره ، وتفهيم للقرآن الكريم ، واطلاع على تعليماته عن طريق اللغات الإقليمية والمحلية كما كان شأن الهند .

وليكونوا في ذلك مقتفين لمناهج الإمام أحمد بن عبد الرحيم ولي الله الدهلوي ، وأبنائه وخلفائه ، خصوصاً الإمام السيد أحمد الشهيد رحمه الله (ش١٢٤٦هـ) وصاحبه الإمام الشيخ إسماعيل بن عبد الغني بن ولي الله الدهلوي رحمه الله وأصحابهما كالشيخ ولاية علي

= للإمام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي رحمه الله ، صاحب « حجة الله البالغة » و « إزالة الخفاء » .

وليس معنى ذلك المنع من الدراسة المقارنة وعرض المذاهب الفقهية على الحديث ، والبحث عن دليلها ومؤيداتها في دواوين السنة وكتب الحديث المعتمد عليها ، كما فعل عدد من كبار العلماء في القديم ، إنما المقصود التجنب من القيام بحركة شعبية متحمِّسة ودعاية سياسية وحزبيّة قويّة ضد المذاهب الفقهية المعمول بها في الجماهير المطابقة للكتاب والسنة مبدئياً ، لأنها تحدث رد فعل وحركة مقاومة ليست في صالح الأمة في عصر وبيئة كثرت فيها التحديات والهجمات والأخطار والمؤامرات ضد الوجود الإسلامي ، وشرائع الإسلام ومشخصاته .

الصادق فوري البتنوي ، وأصحابه وخلفائه والشيخ كرامة علي الجونفوري الذي اهتدى عن طريقه إلى العقيدة الصحيحة ، والعمل بالسنة عدة ملايين من البشر في بنغلادش وغيرهما[1] .

وما التوفيق إلا من عند الله .

* * *

(1) ليرجع في الاطلاع على تاريخ هذه الدعوة ، والقائمين بها وإمامها ، الإمام السيد أحمد الشهيد رحمه الله إلى كتاب « سيرت سيد أحمد شهيد رحمه الله » في أردو ١ ـ ٢ ورسالة « إذا هبت ريح الإيمان » ورسالة « الإمام الذي لم يوف حقه من الإنصاف والاعتراف » للعلامة المؤلف ، وكتاب « تقوية الإيمان » للعلامة الشهيد الشيخ إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي ، وعلى الله قصد السبيل ، وقد أسلم على يد السيد أحمد بن عرفان الشهيد أربعون ألفاً من الوثنيين والهنادك وبايعه وتاب على يده من العقائد الضالة والأعمال والأخلاق الفاسدة ثلاثة ملايين من المسلمين .

ملاحظة

ليلاحظ أن صاحب هذه الرسالة أشار إلى شروح كتب الحديث ـ من الصحاح والسنن والمسانيد ـ التي وصل إليها علمه أو استفاد منها ، ويمكن أن يكون قد فاته التنويه ببعض الشروح المهمة والمفيدة ، فليس الكتاب موسوعة علمية ، أو قائمة مستوعبة ، وقد كتب معظم ما جاء في هذه الرسالة بعيداً عن المكتبات الرئيسية الغنية ، فالرجاء أن لا يحمل ذلك على عصبية طائفية ، أو تركيز على مذهب فقهي معيَّن ، أو مدرسة علمية فكرية خاصَّة .

« والعذر عند كرام الناس مقبول » .

(المؤلف)



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

* * *